جامعة زيان عاشور– الجلفة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ وعلم الآثار

مطبوعة خاصة بمقياس : صدر الإسلام والدولة الأموية

محاضرات في صدر الإسلام والدولة الأموية

دروس موجهة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس ، تخصص : تاريخ

السداسي: 1 الرصيد: 5 المعامل: 2 التقييم: أعمال موجهة+امتحان

إعداد : د/ جباري مسعود
أستاذ محاضر أ

السنة الجامعة : 1442– 1443 هـ / 2021– 2022 م

مقدمة

لقد شهدت الإنسانية تغيرات كثيرة في مختلف جوانب الحياة ، فكان للأنبياء والرسل دور في توجيه و إرشاد المجتمعات – التي عاشوا فيها – إلى قيم ومعاني سامية تمثلت خصوصا في ضرورة توحيد الله عز و جل ، فكلما انحدرت المجتمعات بعد تباعد رسالة النبي إلا وجاء نبي آخر ليعيدهم إلى الطريق المستقيم والمنهج السوي .

و بعد مجيء النبي المسيح عيسى عليه السلام و محاولاته إرشاد و توجيه اليهود إلى الخير و سبل الرشاد ، و بعد أن رفعه الله عز و جل.. ، أخذت المجتمعات البشرية في التدهور و الانحطاط ، و منها المجتمع العربي الذي كان يئن في مهاوي الضلال و الزيغ و الشرك و الكفر ، و مع أنه قد بقيت معهم مجموعة من القيم الإبراهيمية و تميزهم بصفات إيجابية – كذلك – في الحياة ، إلا أن الغالب عليهم كان الشرك و الكفر .

فما إن بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسولا و هاديا إلى قومه في الجزيرة العربية كانت رسالته هادية إلى البشرية كلها في جمع الأقطار و البلدان و

الأمصار و على وجه البسيطة كلها و في كل الأزمنة والعصور إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

فكانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إذن كلها هداية و إرشاد و خير للعرب و للمسلمين و لكافة البشرية... و قد كانت شخصية النبي محمد صلى الله عليه و سلم في قمة السمو و مكارم الأخلاق ، سواء قبل بعثته أو في بداية دعوته في مكة المكرمة أو في تأسيسه للمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إليها . و قد شهد عصر الخلافة الراشدة كذلك سموا أخلاقيا و انتشارا للإسلام في مجموعة من البقاع و البلدان و المجتمعات ، و اتسم في الحكم و السياسة بتطبيق الآية الكريمة " **و أمرهم شورى بينهم** " فكانت الشورى قيمة سامية في الحكم و الشريعة و القضاء و كل التعاملات الاجتماعية .

و شهدت الخلافة الأموية بعد ذلك محاولات لنشر الإسلام في مجتمعات أخرى، كما شهدت في الحكم و السياسة التحول من الشورى إلى الملك ، و اتسمت كذلك ببروز مجموعة من جوانب الحياة سواء في الإدارة و التسيير أو في الأدب والعلوم أو في العمران و البناء .

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في جزيرة العرب قبل الإسلام

1- النظام القبلي :

انحلت الدول العربية قبل الإسلام وكانت حاولت أن تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة من الدويلات ، و ساد النظام القبلي ، لا في الصحراء فقط ، بل حتى في أغلب المدن الموجودة على أطراف الجزيرة العربية .

وقد قام النظام البدوي على أساس القبيلة ، وتنقسم القبيلة إلى ثلاثة أقسام اجتماعية ، وهي: العرب الصليبة ، والحلفاء ، والعبيد ، والصليبة هم أصل القبيلة وينحدرون من أصل واحد مشترك هو جدهم الأعلى ، لهم حق الاحتفاظ بحريتهم ، ولهم حق الإجارة 1 .

والنسب مهم عند القبيلة لأنه يعكس نقاوة دم الفرد وارتباطه بها ، وقد ظل الاهتمام به حتى مجيء الإسلام ، ولا يمكن تحديد أفراد كل قبيلة بالضبط ، فبعض القبائل الصغيرة عددها قليل جدا ، وهناك قبائل كثيرة العدد وهي تنقسم إلى أقسام : كالعشيرة، والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي .

وأما الحلفاء فهم الذين لجؤوا إلى القبيلة وطلبوا حمايتها أو حماية أفرادها ، والغرض من لجوئهم هو أن ينالوا حياة القبيلة التي يحالفونها ، وهم في الغالب من الحلفاء الذين قاموا بأعمال سيئة في قبيلتهم الأصلية لدرجة أصبح وجودهم فيها غير مرغوب فيه فطردتهم ، أو أنهم غرباء جاؤوا إلى القبيلة ليتاجروا معها2 .

ويشكل العبيد الفئة الثالثة من فئات القبيلة ، ومصدرهم الأسر في الحرب أو الشراء أو الدَّين أو القمار ، وهم أدنى فئة اجتماعية في القبيلة ، وتوكل إليهم مهمة الأعمال اليدوية

1- كمال اليازجي : معالم الفكر العربي ، ص 18
2- محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ، ص 148

ورعاية الحيوانات وهم لا يشتركون في الحرب ولا يملكون الحرية الاجتماعية ، ويعدون ملكا للسيد يباعون ويشترون بيع الأموال المنقولة1 .

2- من صفات النظام القبلي :

1/ الشجاعة : حيث كان لها دور كبير في ظروف بيئية صعبة ، كالتي عاشها العرب في جزيرتهم ، تفتقر إلى حكومة مركزية وما يترتب على ذلك من فقدان الأمن والاستقرار ، والشجاعة منزلة لا تعلوها منزلة ، وقد عرف العربي بعدم مبالاته بالموت ، وقد يستهين بنفسه في سبيل الدفاع عن عرضه وشرفه .

2/ الكرم : عرف العربي بالكرم والترحيب بالضيف والاحتفاء به ، وقد اعتبر الكرم إحدى مظاهر السيادة عنده ، فكان يباهي الآخرين بكثرة ضيوفه ، وكان العربي يوقد النار شتاء ليهتدي بها الغرباء ، وينزلون عنده ضيوفا ، وكان يجذب الضيوف بنباح الكلاب ، وإن ضل أحد الضيوف الطريق ولم ير نارا نبح كما تبح الكلاب فتجيبه الكلاب ، فيتمكن بعد ذلك من الاهتداء إلى من يستضيفه ، ومن رجال العرب الذين عرفوا بالكرم : حاتم الطائي ، وكعب بن ماجه الإيادي ، وأوس بن حارثة بن لام الطائي2 .

3/ العفة : في بيئة كالتي عاش بها العرب في جزيرتهم ، والتي قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتداد بالشرف ، كان لابد للرجال والنساء من التعفف ، لأن العدوان على العرض معناه جر فاعله إلى ويلات الحرب ، فكان لابد إذن من حماية العرض من أن يمس أو يلطخ بالعار3 .

وقد عرف العربي بغض النظر إلى النساء ، واعتبر ذلك من شروط السيادة ، وهي كالشجاعة والكرم ، قال عنترة بن شداد :

1- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج 8 ، ص 49
2 - الألوسي : بلوغ الأرب ، ج1 ، ص 51 / 75 / 113
3 - أحمد الحوفي : الحياة السياسية العربية في الشعر الجاهلي ، ص 361

وأغض طرفي ما بدت جارتي حتى يواري جارتي مأواها

4/ الوفاء : تمسك العربي بالوفاء بالعهد ، وكان يعده دَينا عليه ، ويستهين في سبيله قتل أولاده وتخريب داره ، وكان يغالي في الدفاع عن جاره وحليفه لدرجة يكون عنده مقدما على أبنائه و إخوته ، وقد عرف العربي بتمسكه بالعهود وحفظها ، وكره الغدر واستهجن الكذب ، مثاله : قصة هانئ بن مسعود الشيباني الذي أصر على المحافظة على ودائع النعمان ، وقد أدى حرصه على ذلك إلى قيام حرب بين العرب والفرس في ذي قار ، وقصة وفاء بن زهير المازني الذي قتل أخاه لغدره بجاره ... ، ويكتسب العربي من الوفاء شرفا ينتقل إلى أعقابه .

5/ حماية الجار : أعز العرب الحليف والجار وضحوا من أجل حمايته إلى حد الموت ، وممن ضرب به المثل في حماية الجار من بني شيبان : عوف بن ملحم ، وقصة البسوس جارة جساس بن مرة الشيباني من رجال بني شيبان الذي اشتهر بحماية الجار والذود عنه1 .

3- المرأة في المجتمع القبلي

للرجل السيادة على زوجته وأولاده قبل بلوغهم ، ولذا فقد كان المجتمع البدوي مجتمعا أبويا، ومع ذلك فللمرأة مكانتها المرموقة التي تتناسب مع ما تؤديه من خدمات في بيتها ، لأن المجتمع البدوي كان يمتهن الحرب والرعي ، يضاف إلى ذلك أن المرأة كانت تنتج الأولاد الذين هم عماد القبيلة وعلامة قوتها ، خاصة إذا كان الأولاد قادرين على أن يكوِّنوا لأنفسهم مكانة مرموقة في القبيلة ، وتدخل المرأة إلى البيت البهجة والسرور وحياة روحية جميلة ، إضافة إلى مشاركتها في الحرب لتضميد الجرحى ونظم الشعر وتشجيع المقاتلين .

وتعد المرأة من أهم عناصر الشرف ، وأصبح الدفاع عنها من المروءة التي يفتخر بها العربي ، وكان العربي لا يرفض أن يستجير بها ، ومن دلائل احترامها أنها كانت تخاطب بـ " الحرمة " من الاحترام ، و بـ " ربة البيت "2 .

1 - محمود عبد الله العبيدي : بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي ، ص 62 - 63
2 - أحمد صالح العدلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص 137

وكانت المرأة تتمتع بحقوق كثيرة ، فقد كانت تملك أملاكا خاصة بها ، وخير مثال على ذلك " خديجة بنت خويلد الأسدي " و " جليلة بنت المهلهل " التي كانت تملك الغنم يرعاها لها زيد الخيل ، ولم تكن تتزوج إلا بعد موافقتها إذ كانت تملك حق رفض من لا تريده ممن يطلبون يدها ، كما أعطي بعضهن حق الطلاق[1] .

ولم يكن العربي يرهق المرأة بالأعمال والواجبات كما فعل الفرس واليونان ، وكان العربي يهتم باختيار زوجته ويهدف دائما أن تكون كفؤة ونجيبة ، ذكية وجميلة ، وكان يميل إلى المرأة الطويلة العنق ، فارعة القوام ، لينة الجسم ، ممتلئة الذراعين والساقين ، عظيمة الوركين ، ناعمة البشرة ، ذات فم طيب الرائحة[2] .

وظهرت نساء عربيات لعبن دورا كبيرا في التاريخ العربي قبل البعثة النبوية ، في السياسة والاقتصاد والأدب والدين ، مثل : زنوبيا ملكة تدمر ، وبلقيس ملكأة سبأ ، والخنساء بنت عمرو، والسيدة خديجة بنت خويلد الأسدي ، وفي مكة نفسها كان مفتاح الكعبة بيد امرأة هي : حبى بنت خليل الخزاعي زوجة قصي بن كلاب[3] .

ومع ذلك ولأسباب اقتصادية واجتماعية ظهرت بعض حالات الوأد عند بعض القبائل ، وهذا لا يمكن أن يكون دليلا على احتقار المرأة[4] .

---

1 - ابن حبيب : المحير ، ص 398
2 - علي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 64
3 - نفسه : ص 56 - 57
4 - إشارة القرآن إلى ذلك في : سورة الإسراء ، الآية 40 ، سورة النحل ، الآيات 57-59

الحياة الدينية في بلاد العرب قبل الإسلام

سادت بلاد العرب قبل الإسلام عدة عبادات :

1/ الطوطمية : كانت الكثرة الغالبة من العرب - ومن بينها قريش - في الجاهلية على الوثنية ، ولهم اعتقاد بقوى الهية متعددة من الكوكب ومظاهر الطبيعة ، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على ذلك ، حيث تلتف الجماعة حول طوطم يدافع عنها مثل : كلب وثعلبة وغيرها ، كما اعتقدوا أيضا بقوى خفية في بعض الجمادات والطيور والنباتات والحيوانات ، وهذه الطوطمية عبارة عن مرحلة من مراحل الاعتقادات الفطرية المتواجدة في المجتمعات البدائية ، ولانزال نراها عند القبائل البدائية في إفريقيا وآسيا ومجتمعات عدة في أمريكا الجنوبية ، كما وجدت عند الأمم القديمة كاليونان وغيرهم .

وقد يكون الطوطم حيوانا فيبقي عليه صاحبه ويقدسه ، وإذا كان نباتا لا يقطعه ولا يأكله إلا عند الضرورة القصوى[1] .

ويمكن ملاحظة الطوطمية في كثير من مظاهر حياة العرب في الجاهلية ، ومن أمثلتها :

- العرب كانوا يقدسون الحيوان لتحصيل البركة ، كما كانوا يعتقدون - أيضا - بحماية الطوطم لأهله عند وقوع الخطر ، ولذا اعتادوا على حمله معهم في المعارك مثل فعل أبي سفيان عندما حمل اللات والعزى يوم أحد[2] .

- كان العربي يتفاءل بالطير كالحمامة ، ونباح الكلب دليل على مقدم الضيوف ، ويتشاءم من رؤية الغراب ويعتبره نذير شؤم ، كما كنوا يتسمون بأسماء الحيوانات مثل : أسد وفهد وكلب وذئب وضبيعة ، أو بأسماء طيور مثل نسر وعقاب ، أو بأسماء نباتات مثل : حنظلة ، أو بأسماء حشرات مثل حية وحنش ، أو أجزاء من الأرض كصخر وحجر ، وهذه التسميات من قبيل التفاؤل ، وتسير من ناحية أخرى إلى تقديس العرب للحيوانات والنبتات وغيرها ، كما كان العرب يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء كضرار وحرب وكلب وتسمية عبيدهم

1 - محمد عبد المعين خان : الأساطير العربية في الإسلام ، ص 55 / 83 / 86 - 88
2 - محمد عبد المعين خان : نفسه ، ص 79 / ابن الكلبي : كتاب الأصنام ، ص 79

بمحبوب الأسمـاء كنجاح وفلاح وغيرها ، ويقولون " إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا " .

- كما كان العرب يحرمون لمس الطوطم أو التلفظ باسمه ، بل ويجعلون له كنية ، كالأسد بأبي الحارث ، والضبع بأم عامر .

2/ مظاهر الطبيعة : كان العربي يؤمن بوجود قوى روحية خفية تؤثر في العالم ، وهذه القوى موجودة في مظاهر الطبيعة الموجودة حوله من كائنات ، كالنبات و الجماد والحيوان و الطير - كما سبق القول - وفي مظاهر الطبيعة الأخرى كالكواكب والنجوم[1] ، وربط بين هذه الكائنات والظواهر الطبيعية وبين القوى الروحية الخفية وقدسها ، كما قام العرب بعبادة قطع من الصخور التي يستحسن هيئتها ، وكانت معظمها بيضاء اللون ، لها علاقة بالغنم واللبن[2] ، ومن أمثلة تلك الصخور : ذو الخلصة ، وكانت صخرة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ، وكانت لأرض تبالة على الطريق الواقعة بين مكة واليمن ، ومنها : الجلسد ، وكان صنما لحضرموت على هيئة " الرجل العظيم " وهو صخرة بيضاء ذات رأس أسود ، ومنها أيضا : مسعد ، وكان صخرة طويلة بساحل جدة ، وأيضا : ذات أنواط ، وكانت شجرة خضراء يقدسها العرب ويأتون إليها كل عام تعظيما لها ، وكانت قائمة بالقرب من مكة .

3/ الأصنام : استعمل العرب اصطلاحين هما : أصنام وأوثان ، للدلالة على التماثيل التي يعبدونها في الجاهلية ، ولفظ أصنام (مفردها : صنم) هو تمثال ، أما : وثن ، فيقصد بها الصنم الذي يرمز إلى الإله ، وهناك فرق بينهما ، فالتمثال أو الصنم - كما يذكر ابن الكلبي - ما كان مصنوعا من خشب أو معدن ، مثل الفضة أو الذهب وعلى صورة إنسان ، وإذا كان من حجارة فهو وثن[3] .

وكانت الأصنام تقدم إلى اللآلهة لتوضع في معابدها تقربا لها ، لإجابتها دعاء من يدعوها بقضاء حاجة له ، أي تقدم كنذور للآلهة ، أما الأوثان فهي تماثيل منحوتة في الحجر ترمز للإله ، و إليها تقدم القرابين وتنحر الذبائح[4] .

---

1 - جواد علي ، مرجع سابق ، ص 22
2 - محمد عبد المعين خان : مرجع سابق ، ص 98
3 - نفسه ، ص 53
4 - جواد علي ، مرجع سابق ، ج5 ، ص 78

إن من أصنام العرب القديمة : مناة ، وكان منصوبا على ساحل البحر بين مكة والمدينة ، وكان موضع تعظيم كل العرب ، والجميع يزوره ويهدون له ويذبحون ، وكان على هيئة صخرة ، ولذلك أنثوا هذه الآلهة ، وظل هذا الصنم موضع تعظيم العرب حتى فتح مكــة عام 8 هـ ، حيث هدمه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والصنم الثاني من أصنام العرب المشهورة والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم هو : اللات ، وهي من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب وأخذها من الأنباط ، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى ، فأقاموا لها بيتا كان محل تعظيم العرب ، وظلت اللات ربة ثقيف حتى أسلمت قبيلة ثقيف ، فأرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

أما العزى فكانت شجرة بوادي نخلة عندها وثن تعبده غطفان ، وهي نفسها عشتار عند بابل ، وكانت رمزا للشتاء عند العرب ، ولما فتح النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة في 8 هـ عهد إلى خالد بن الوليد بقطع شجرة العزى ، فقطعها وهو ينشد :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وهناك أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش وسائر قبائل العرب في الجاهلية ، ويذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عند فتح مكة وجد في الكعبة حوالي 360 صنما ، وكان أعظمها عند قريش : هبل ، وهو من عقيق أحمر على صورة إنسان ، وعرف بهبل خزيمة نسبة إلى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر أول من نصبه فس جوف الكعبة ، وعنده ضرب عبد المطلب سيد مكة بالقداح على ابنه عبد الله .

ومن أصنام قريش المشهورة أيضا : إساف (على الصفا) ونائلة (على مروة) ، وتيم ، وشمس ، وذو الشرى* .

* ومن أصنام العرب أيضا : ذو الكفين وكان لدوس ، وقد أحرق على يد الطفيــل بن عمرو الدوسي عندما أمره الرســول - صلى الله عليه وسلم - بتحريقه
جواد علي ، مرجع سابق : ج5 ، ص 113 - 199

وكان العرب يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصابا من الحجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها للآلهة ، ويقدسون هذه الأصنام ويعدونها مقرا لبعض الأرواح.

حواضر الحجاز قبل الإسلام

1- مكـة :

1/ الموقع :

تقع مدينة مكة ضمن منطقة تهامة ، في واد منبسط ضيق يأخذ شكل هلال بين جبلي : أبي قبيس وقيقعان ، وهو واد تحيط به الجبال من كل جانب فتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ ، أحدها يصله بطريق اليمن ، والثاني يصله بالطريق المؤدية إلى فلسطين، ويتميز مناخ هذا الوادي بالجفاف والحرارة العالية ، ويستمد ماءه من آبار تستجمع ماءها بدورها من أمطار الشتاء والربيع ، والتي تسقط أحيانا على شكل سيول غزيرة تتدفق من الجبلبين المحيطين إلى قلب الوادي ، ولذا فقد أقام الأهالي مصدات للسيول منذ القدم في الجبل ، بهدف حماية الكعبة والتي تضررت مرارا من هذه السيول ، وآثار هذه المصدات لاتزال باقية ، أما كلمة البطحاء فتطلق على قاع الوادي حيث تقع الكعبة ، وحول الكعبة في المسجد الحرام ، ثم تمتد منازل الأهالي حتى سفوح الجبال .

وترجع أهمية هذه المدينة في العهود القديمة إلى موقعها على الطريق التجاري الممتد من اليمن إلى الشام ومصر ، وقد زاد وجود الكعبة من أهمية المدينة ، فصارت منذ الجاهلية مزارا ومطافا للعرب ، ولذا نلاحظ عبر الحقب التاريخية المختلفة أن القبائل العربية على اختلافها كانت تتقاتل من أجل بسط السيطرة عليها ، ومن هذه الطوائف العربية آل جرهم ، وخزاعة وأخيرا قريش التي نجحت في بسط نفوذها على مكة بصورة مستقلة واستمرت سيطرتها قائمة عليها حتى بعثة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - .

2/ اشتقاق اسم مكة :

اختلف الإخباريون العرب في معنى اسم مكة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى* :

- سميت مكة لأنها تمكُّ الجبابرة ، أي تذهب نخوتهم .

* ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 5 ، ص 181 - 182

- ويقال أنها سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكُّ فيه ، أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها (والمكاء طائر ، والمكاء الصفير) فكأنهم كانوا يحاكون بالصفير صوت المكاء.

- وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة بمنزلة المكوك ، والمكوك لفظ عربي أو معرب ورد في أشعار العرب ، قال الأعشى :

والمكاكي والصحاف من الفـ ضة والضامرات تحت الرجال

- ويرى ياقوت أنها سميت مكة من : مكَّ الندى ، أي مصه لقلة مائها ، لأنهم كانوا يمتكُّون الماء : أي يستخرجونه ، وقيل : إنها تمك الذنوب ، أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقي فيه شيئا ، وقيل : سميت مكة لأنها تمك من ظلم ، أي تنقصه :

يا مكة الفاجر مكي مكا ولا تمكي مدحجا وعكا

- ويذهب علماء اللغة بأنها سميت مكة لأنها " عبدت الناس فيها ، فيأتونها من جميع الأطراف ، وذلك من قولهم : امتك الفصيل أخلاف الناقة ، أي : جذب جميع ما فيها جذبا شديدا فلم يبق فيها شيئا " ، ولما كانت مكة مكانا للعبادة فقد امتكت الناس ، أي جذبتهم من جميع الأطراف .

- ويقال أيضا أنها سميت مكة " لازدحام الناس بها ، من قولهم : قد امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصا شديدا "

- كذلك جاء ذكر مدينة مكة في جغرافية " بطليموس " تحت اسم " ماكورابا MACORABA "[1] ومعناها " مقدس " أو حرم ، مما يدل على أن مكة منذ نشأتها كانت مقاما دينيا ومركزا للعبادة قبل الإسلام بوقت طويل ، ولعل لهذا الاسم ارتباطا بالبيت العتيق الذي كان سببا في شهرتها كعاصمة دينـــية للعرب في الجاهليـــة ، فكلمة " ماكورابا " قريبـــة من " مكرب " التي عرفت باليمن زمن دولة سبأ ، وهو لقب لكهنة سبأ ، أصحاب السيطرة الدينية والدنيوية في الدولة .

1 - جواد علي ، مرجع سابق ، ج 4 ، ص 188 .

ويورد " بروكلمان " تفسيرا آخر : بأن مكة مشتقة من " مكرب " أو مقرب العربية الجنوبية وهو لفظ بمعنى " الهيكل "[1] .

ويرى آخرون أنها مشتقة من " مك " في البابلية ، بمعنى " البيت "[2] .

- أما بكة الواردة في النص القرآني : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾[3] هي نفسها مكة ، وأبدلت فيها الميم " باء " على عادة ولهجة أهل الجنوب ، لأن بكة ليست سوى لهجة من لهجات القبائل التي تبل الميم باء "[4]

إن جميع الأسماء التي أطلقت على مكة (الباسة ، محطمة الملحدين ، أم القرى ، الحاطمة ، البيت العتيق ، الحرم ، صلاح ، البيت الامين ، البلد ، وسمى الله تعالى الكعبة : البيت الحرام ، البيت المحرم) تفيد بكونها منذ بداية نشأتها أنها مقام ديني .

3/ تاريخ مكة قبل الإسلام * :

إن وادي مكة قد اتخذ موئلا لراحة القوافل التجارية العابرة من الشمال والجنوب ، بسبب ما كان فيه من عيون الماء ، فعلى طول الطريق التجارية عبر الصحراء وجدت عدة أماكن متفرقة اتخذها المسافرون محطات لراحتهم ، ومنها وادي مكة ، أما عن أقدم من حكم مكة والحجاز بصفة عامة ، فطبقا لروايات الإخباريين العرب هم ، العمالقة وعليهم السميدع بن لاوي[5] .

وخلفهم بنو جرهم ، وكان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد أسكن ولده إسماعيـــل - عليه السلام - مكة مع أمه هاجر، وأقام قواعد البيت العتيق بمعاونة ولده اسماعيل الذي تزوج من

---

1 - بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج 1 ، ص 33
2 - جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ، ص 257
3 - سورة آل عمران ، الآية 96
4 - جواد علي ، مرجع سابق ، ج 4 ، ص 189
* مكة مدينة قديمة ورد اسمها في العديد من المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، وكذا عند الإخباريين العرب، كما ذكرها " بطليموس " الاسكندري تحت اسم " ماكورابا " كما ذكرنا سابقا ، ولكنها أقدم عهدا من هذا الجغرافي الذي عاش في ق 2 م ، خاصة وقد أشارت مواضع عديدة إلى الحرمة والقداسة عند عرب الجاهلية لأماكن في غرب الجزيرة العربية (ولا يستبعد أن مكة من ضمنها) ص 54
5 - ياقوت الحموي ، مرجع سابق ، مادة مكة .

جرهم ، التي بنت منازلها بمكة وما حولها * ، وطبقا لذلك ، فالقول الراجح أن إسماعيل - عليه السلام - هو أول من اتخذها مقاما وسكنا بعد أن كانت مجرد محطة وسوق للقوافل التجارية الذاهبة و الآتية من الشمال والجنوب ، وبعد إسماعيل - عليه السلام - قام بأمر البيت : الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو أول من ولي البيت من جرهم التي ظلت تقوم بأمر البيت فترة من الزمن وأبناء إسماعيل - عليه السلام - مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم أمر البيت لصلة القرابة والنسب ، ثم وفدت خزاعة اليمنية المهاجرة من اليمن إلى مكة بعد سيل العرم ، فنزلوا بظاهر مكة وهزموا الجرهميين وطردوهم منها ، فتفرقت جرهم ومعها أبناء إسماعيل - عليه السلام - حول مكة وفي تهامة ، وآل أمر الإشراف على البيت إلى خزاعة بقيادة " عمرو بن لحي " الذي غير دين إبراهيم - عليه السلام - وبدله بعبادة الأوثان .

وتذكر مصادر أن عمرو عمل على تنشيط الحج إلى مكة بعد أن تدهور حالها بسبب ظلم جرهم واعتداءاتها على القوافل والتجار وإهمال زمزم فطمر ، فأخذ يقيم موائد الطعام في موسم الحج ، وييسر جلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، فنال منزلة كبيرة بين قومه والقبائل المحيطة بمكة ، كما تروي المصادر أنه استحضر معه من البلقاء بالشام أصناما نصبها حول الكعبة ليرغب القبائل العربية في القدوم والحج لمكة في ضوء عدم معرفتها بالحنيفية دين إبراهيم - عليه السلام - .

ووجد عمرو بن لحي استجابة لفعله هذا من القبائل العربية ، لأن الحنيفية قد ضعف أمرها بين العرب ، وحتى بين أبناء وأحفاد إسماعيل - عليه السلام - أنفسهم ، وظلت خزاعة تلي أمر البيت ، بينما احتفظت مضر بحق الإجارة بين الناس من عرفة ، والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى ، ثم تشعبت مضر وبطون كنانة ، وصاروا أحياء وبيوتات في ظاهر مكة ، إلى أن تمكن قصي بن كلاب بن مرة من انتزاع ولاية البيت والسيادة على مكة من خزاعة ، وإلى قصي يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة ، ولذا فتاريخ مكة الحقيقي يبدأ من أيام قصي بن كلاب مرة القرشي الذي تولى أمر مكـة حوالي منتصف القـــرن 5 م .

* هناك روايات تقول بقدوم جرهم إلى الوادي بعدما رأوا علامات لوجود الماء .

لقد أصبحت مكة في عهد السيادة القرشيــة تتمتع بتوجيــه عربي حتى بعثــة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - في أوائل ق 7 م ، وبين قصي وبداية البعثة النبوية مدة لا تزيد عن 150 عاما ، وهي مدة كانت أحوال قريش فيها متصلة بمكة ولا يمكن نسيان أحداثها ، خصوصا مع قوة الذاكرة العربية[1] .

2- الطائف :

وهي من المدن القديمة في منطقة الحجاز ، وتقع على مقربة من مكة ، اشتهرت بخصوبة التربة واعتدال المناخ ووفرة المياه وكثرة البساتين ، ويرى بعض الباحثين أنها سميت بالطائف للطواف حول بيت اللات ، إذ كانت الطائف المركز الثاني في بلاد العرب ، ويتركز بها عبادة اللات .

وكانت قبيلة ثقيف تسكن بالطائف ، وهي تنقسم إلى قسمين : أحدهما يسمى بني مالك ، والآخر يطلق عليه الأحلاف .

وعلاوة على ذلك كان يسكن قرب الطائف قبيلة هوازن ، كما أقام فيها أفراد من حمير وقريش واليهود من أجل التجارة .

وقد اشتهرت الطائف بالزراعة وخصوصا الحنطة (القمح) ، والفاكهة ، مثل : الكروم والتين ، علاوة على السمن والعسل ، وكانت معظم فواكه مكة تأتي من الطائف[2] ، كذلك برز أهل الطائف في التجارة ، فكانت قوافلهم تتجه إلى مكة والعراق والشام وفارس[3] .

3- يثرب :

وهي مدينة قديمة تقع إلى الشمال من مكة على مسافة 500 كم تقريبا ، ولها عدة أسماء أخرى ، مثل : طيبة ، ودار الهجرة ، ومدينة الرسول ، والدار ، ودار الإيمان ، ويرى البعض أن اسم يثرب مشتق من التثريب ، أي : المؤاخذة بالذنب ، أو من الثرب بمعنى : الإفساد ،

1 - كمال سيد أبو مصطفى : تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، ص 54 ، 55 ، 56
2 - السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص 332 - 333
3 - كمال سيد أبو مصطفى ، مرجع سابق ، ص 88 - 89

ولذا يرى أصحاب هذا الرأي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن تلك التسمية (يثرب) وأطلق عليها : طيبة[1] .

وتتميز يثرب أو المدينة بأنها تقع في سهل من الأرض يكثر به الأشجار والبساتين ، ويتوفر فيه مياه الآبار والعيون ، ويحيط بهذا السهل مجموعة من الجبال الوعرة مثل : جبل أحد ، وجبل عير وغيرهما ، واشتهرت يثرب بالنخيل والكروم والحبوب والخضروات ، وحقق الكثير من أهلها الثراء لامتلاكهم الأراضي الزراعية والبساتين ، علاوة على علاقاتهم التجارية مع الحواضر الحجازية الأخرى وبلاد الشام .

وكان سكان يثرب يتألفون من عنصرين مختلفين هما : العرب ، أي قبائل الأوس والخزرج ، واليهود ، وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريضة ، وقد أدى اختلاف القبائل والعناصر السكانية داخل يثرب إلى وجود صراعات وحروب من أجل التنافس على السيادة ، سواء الصراع بين العرب وبعضهم البعض ، أو بين العرب واليهود ، واستمر ذلك إلى أن هاجر إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأصلح بينهم[2] .

1 - السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص 332 - 333 .
2 - كمال سيد أبو مصطفى ، مرجع سابق ، ص 88 - 89 .

عصر البعثة النبوية

1- من المولد إلى البعثة

لما شاعت الوثنية في شبه الجزيرة العربية وساد الشرك ، ولم يبق من دين إبراهيم إلا بقايا حنيفية يؤمن بها أفراد معدودون ، شاء الله تعالى أن يبعث من يدعوا إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، فاختار لهذه المهمة العظيمة رجلا عظيما نسبا وخلقا ، هو محمد - صلى الله عليه وسلم - .

1/ نسبه ونشأته :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ، " وهي أسرة زاكية المعدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل وترفعت عما يشينهم من أوضار ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » " [1] ، ويروى عنه قوله : « أنا ابن الذبيحين » و " يقصد بالذبيح الأول : سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم - عليهما السلام - ، ويهدف بالآخر إلى أبيه نفسه : عبد الله بن عبد المطلب "[2] .

وأمه " آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا ، وأبوها سيد بني زهرة نسبا وشرفا "[3] ، يلتقي نسبها مع عبد الله بن عبد المطلب عند كلاب بن مرة بن كعب ، فهي أيضا من ولد إسماعيل -عليه السلام - .

1 - محمد الغزالي : فقه السيرة ، ص 45
2 - محمد كمال شبانة : الدولة العربية الإسلامية ، ص 30
3 - صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص 35

ولد - صلى الله عليه وسلم - عام الفيل (وهي السنة التي أراد فيها أبرهة الحبشي هدم الكعبة) صبيحة يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول ، الموافق للثاني والعشرين من أبريل سنة 571 م ، توفي والده قبل مولده " فكفله جده عبد المطلب الذي عهد به إلى المراضع في البادية لينشأ في جو الصحراء الصافي نشأة قوية ، ويتعلم الفروسية والعربية الفصحى "[1] ، وقد أخذته حليمة السعدية لإرضاعه وتربيته ، فبقي عندها إلى حادثة شق الصدر ، فردته إلى أهله في مكة خوفا عليه ، ولما توفيت أمه وهو في السادسة ، ثم جده عبد المطلب وهو في الثامنة ، انتقلت رعايته إلى عمه أبو طالب ، فضمه إلى ولده .

2/ مشاركته في الحياة العامة :

اشتغل - صلى الله عليه وسلم - في طفولته برعاية الغنم في بني ساعدة ، ثم في مكة ، قال صلى الله عليه وسلم : « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة » ، ثم سافر مع عمه أبوطالب إلى الشام في ركب للتجارة ، وفي بصرى الشام مروا على راهب اسمه " بحيرا " فأخبره أن يعود به إلى مكة خوفا عليه من اليهود وأخبر عمه أنه سيكون ذا شأن عظيم .

ولما بلغ الخامسة عشر شارك في " حرب الفجار " ، وسميت بذلك لانتهاك الأشهر الحرم فكان يمد أعمامه بالنبال ، وعلى إثر هذه الحرب قام حلف الفضول ، إذ تحالفت قبائل قريش على ألا يجدو مظلوما إلا ناصروه حتى يردوا له حقه ويدفعوا الظلم عنه ، وقد قال - صلى الله عليه وسلم - أنه لو دعي لهذا الحلف في الإسلام لأجاب الدعوة .

ولقد عمل في التجارة لخديجة بنت خويلد لما شارف على الخامسة والعشرين ، ولما رأت من صدقه وأمانته وما سمعته من غلامها ميسرة (وقد خرج مع الرسول مرافقا له في سفر التجارة) عن خلقه وبركته ، عرضت عليه الزواج فتزوجها وهي تكبره بخمسة عشر عاما .

" اشترك محمد - صلى الله عليه وسلم - في تجديد بناء الكعبة مع قريش وهو في سن الخامسة والثلاثين من عمره ، وتوسط في حل الخلاف الذي وقع بين قريش حول من يكون له شرف حمل الحجر الأسود ووضعه ، إذ بسط رداءه ووضع الحجر الأسود عليه وقال لتأخذ

1 - جاسم صكبان علي : تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية ، ص 29

كل قبيلة بطرف من الثوب فرفعوه ووضعوه في مكانه ، وكان في عمله هذا حكيما أرضى الجميع "[1] .

3/ تعبده في غار حراء :

" ولما أخذت سنه تدنو نحو الأربعين ، نشأ لديه حب للعزلة بين الفينة والأخرى ، وحبب الله إليه الاختلاء في غار حراء - وحراء جبل يقع في جانب الشمال الغربي من مكة - فكان يخلو فيه ويتعبد الليالي ذوات العدد ، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر "[2] وفيــه كان - صلى الله عليه وسلم - " يتعبد ويصقل قلبه وينقي روحه ويقترب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل وسعه ، حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة "[3] .

" ولقد كان مبدأ الوحي له عبارة عن الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا تحققت مثل فلق الصبح ، تدرجا للأمر العظيم ، وتهيئة للنفس لتلقى الوحي من الملك ، وكانت هذه الفترة من المناماة حوالي ستة أشهر "[4] .

" واستمر - صلى الله عليه وسلم - عاكفا على الخلوة والعبادة حتى أتم الأربعيــن من عمره ، فنزل عليه جبريل وهو بغار حراء ، وكان ذلك في يوم الاثنين لسبع ليال أو سبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، وهو المشهور* ، وقيل في رجب وقيل في ربيع الأول ولم يكن له به عهد من قبل "[5] فقال له : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾[6] .

---

1 - محمد كمال شبانة ، مرجع سابق ، ص 30
2 - محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، ص 60
3 - محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص 68
4 - محمد كمال شبانة ، مرجع سابق ، ص 37
* قال المبارك فوري : " وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلا ، ويوافق 10 أغسطس سنة 610 م "
الرحيق المختوم ، ص 45
5 - نفسه ، ص 37
6 - سورة العلق ، الآيات 1 ... 5

فعاد إلى زوجته وهو يرتجف ، ولمــا حدثها بما جرى له ، ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل (وكان له علم بالتوراة) ، فأخبره أن من جاءه هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى - عليه السلام - وأنه نبي هذه الأمة[1] .

2- من البعثة إلى الهجرة

1/ الدعوة السرية :

لقد كان أول من آمن به : زوجته خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب ومولاه زيد بن حارثة ، وهؤلاء من أهل بيته وتحت رعايته ، وأما من غيرهم فقد كان أبو بكر الصديق أول من أجاب الدعوة " وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون مثل : عثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم الذي داره مقرا للدعوة السرية"[2] .

" وظل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سرا كل من يطمئن إليه ويثق به ، وكان يصلي خفيه هو وأتباعه في شعاب مكة "[3] ، وفي هذه المدة كان ما ينزل من القرآن " آيات قصيرة ذات فواصل رائعة منيعة وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنهما رؤى عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع آنذاك "[4] .

2/ الدعوة العلنية :

بقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو ســرا ، حتى نزل عليــه قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين ، فإن عصوك فقل إني بريء**

1 - صفي الرحمن المباركفوري : مرجع سابق ، ص 46
محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص 69 - 70
محمد سعيد رمضان البوطي ، مرجع سابق ، ص 62 - 63
2 - محمد كمال شبانة ، مرجع سابق ، ص 38
3 - جاسم صكبان علي ، مرجع سابق ، ص 31
4 - صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص 53

مما تعملون ﴾[1] " فدعى بني عبد المطلب أقاربه ليحتمي بهم ، فلما حروا إليه قال لهم : هل تضنون أن شابا مثلي يأتيكم بأمر ولا تصدقوه فيه ؟ فقالوا : ما جربنا عليك كذبا من قبل ، فقال لهم : إني رسول الله إليكم وإلى العالم كافة ، فأسلم بعضهم وعارضه البعض الآخر ، مثل أبي لهب وزوجته وكان عما له ، فقد قال لابن أخيه : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت الآيات في شأن أبي لهب : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد** ﴾[2] "[3] .

" كانت هذه المرحلة بداية للدعوة العلنية وقد مهدت الطريق لدعوة عامة الناس للدين الجديد إذ نزل قوله تعـــالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[4] ، فأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو جهرا كل الناس ، السادة والعبيد ، أقرباءه وغير أقربائه وأهل مكة ، ثم تجاوزها إلى المدن والقرى القريبة ، وكذلك الحجاج الوافدين إلى مكـــة من مختلف الأماكن "[5] .

لم تقاوم قريش في البداية أمر الدعوة لمحدوديتها واقتصارها على الأهل والأقارب وبعض المقربين " ولكن ما إن جهر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالدين الجديد وأخذ يدعو كافة الناس ، بدأت قريش مقاومتها للإسلام وسلكت مختلف السبل للقضاء عليه "[6] .

ولقد كانت لهذه المقاومة أسبابا ، منها :

- عصبيتهم لآلهتهم ودين آبائهم .

- خوف سادة قريش على مكانتهم الاجتماعية .

- خشية قريش من تأثير الدعوة الجديدة على الحالة الاقتصادية و االدينية للقبيلة .

---

1 - سورة الشعراء ، الآيات 214 - 216
2 - سورة المسد
3 - محمد كمال شبانة ، مرجع سابق ، ص 38 - 39
4 - سورة الحجر ، الآية 94
5 - جاسم صكبان علي ، مرجع سابق ، ص 31
6 - نفسه ، ص 31

- تحقيرهم لمكانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومكانة أكثر من آمن به .

وعندما اشتدت معانــاة المسلميــن مما كانوا يلقونهم من أذى وعذاب ، أمرهم الرســول - صلى الله عليه وسلم - بالهجرة إلى الحبشة ، وقال أن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، فهاجروا في السنة الخامسة من البعثة ، وقد كان لهجرتهم سببا آخر : وهو أن " اجتماع هؤلاء الصحابة حيث يمكن أن يُكوّنوا مجتمعا إسلاميا صغيرا ، يربون فيه أنفسهم على الإسلام وقيمه وعقائده بعيدا عن رقابة المشركين ، وثمة احتمال آخر غير بعيد ، وهو أن يكون رسول الله - صلى الله عليه سلم - كلف مهاجرة الحبشة الأولين بأن يستطلعوا أمر هذا البلد الذي يدين أهله بدين كتابي لعله يكون صالحا ويتخذه المسلمون قاعدة لهم وبلدا لهجرتهم "[1] .

لم تخفف قريش من مقاومتها للإسلام وأهله ممن بقي مع الرسول - صلى الله عليه وسلم -، بل تنوعت تلك المقامة إلى أساليب شتى منها :

- عرض المكانة والجاه والمال على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لكنه رفض كل ذلك وتمسك بدعوته .

- أذية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقد كانوا يغرون صبيانهم لرميه بالحجارة ، وكانت زوجة أبي لهب تضع الشوك في طريقه ، بل ولقد حاول أبو جهل قتله برمي حجر على رأسه، لكن الله تعالى حماه منه .

- في السنة السابعة من البعثة قامت قريش بمقاطعة المسلمين في شعاب مكة ، وكتبوا بنود المقاطعة في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، حتى قام بعض من كان يرفض تلك المقاطعة إلى الصحيفة لتمزيقها لكنهم وجدوا الأرضة قد أكلتها إلا جزء منها مكتوب فيه : باسمك اللهم.

" ثم خرج بنو هاشم من حصار الشعب في السنة العاشرة من البعثة ، وفي هذه السنة توفيت خديجة وتوفي عمه أبو طالب ، فعظمت المصيبة على النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب "[2] .

3/ الدعوة خارج قريش :

---

1 - جاسم صكبان علي : مرجع سابق ، ص 33 - 34
2 - نفسه ، ص 37

حينها قرر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعرض دعوته على قبائل غير قريش ، فقام برحلـة إلى الطائف ، لكن سادتها رفضوا دعوته وآذوه ، ثم بدأ عرض دعوته على الحجيج ، حتى التقى سنة 11 هـ بنفر من شباب يثرب عند عقبة منى ، فدعاهم للإسلام فأسلموا ، وذلك لأنهم كانوا يسمعون من اليهود عن نبي سيبعث في ذلك الزمان ، فأرادوا أن يسبقوهم بالإيمان به ، ولما رجعوا إلى أهليهم بدؤوا بالدعة للدين الجديد .

" وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التـالي - موسم الحج سنــة 12 من النبوة ، يوليو سنــة 621 م - اثنا عشــر رجلا ، فيهم خمســة من الستــة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العام السابق "[1] ، فبايعوه على الإسلام وسميت بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم أول سفير في الإسلام : مصعب بن عمير - رضي الله عنه - لدعوة من لم يؤمن بعد ، فقام بمهمته على أكمل موجه ، ثم عاد يبشــر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببشائر الخير .

" وفي السنة الثالثة عشر للبعثة ، خرج من خرج من عرب يثرب من المسلمين إلى الموسم مع حجــاج قومهم من أهل الشـرك حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العقبة ، وبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون أبناءهم ونساءهم واشترطوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يكون معهم على أعدائهم من يهود يثرب "[2] .

وافق الرسول - صلى الله عليه وسلم - على شروطهم ، وبايعهم على ذلك ، وقد سميت ببيعة العقبة الثانية .

4/ الهجرة :

بعد العقبة الثانية أذن الله تعالى للمسلمين بالهجرة إلى المدينة " ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا متخفيــا غير عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - "[3] فإنه أعلن هجرته وقال قولته المشهورة : " من أراد أن يثكل أمه ، أو يوتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي " .

---

1 - صفي الرحمن المباركفوري : م س ، ص 102
2 - جاسم صكبان علي : م س ، ص 39
3 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 129

ولما علمت قريش بأمر هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عقدوا " مؤتمرا كبيرا ضم رؤساءهم ومشايخهم ، وأرادوا أن يضعوا حدا لمسألة الهجرة ، ويقرروا قرارا في الموضوع ، وكانت هناك واحدة من ثلاث اتجاهات :

- ذهب بعضهم إلى حبس محمد في مكة ، وبذلك لا تتحقق له أمنية في الفرار إلى المدينة ، ولكن هذا الرأي قوبل برفض الأغلبية ...

- أشار بعضهم من المؤتمرين إلى نفي الرسول خارج مكة ، ولكن هذا الرأي هو الآخر لم يحظ بالقبول ...

- أن يقتلوا محمدا في مكة ، ولكن عليهم أن يدبروا أمر مقتله ، حتى لا تصيبهم عواقب وخيمة في أولادهم وأموالهم "[1] .

لكن الوحي نزل يخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك فأخذ احتياطه ، وهاجر مع أبي بكر ليلا ، وتمت هجرتهم على مراحل :

- من مكة إلى غار ثور ، وبقوا فيه ثلاثة أيام .

- من غار ثور إلى قباء ، فبنى فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - أول مسجد .

- من قباء إلى المدينة .

3- من الهجرة إلى الوفاة

1/ وصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ودوره فيها :

" بعد وصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، أصبح رئيسا لجماعة سياسية إضافة إلى كونه نبيا مرسلا عليه تبليغ رسالته ، لذا فقد رأى لزاما عليه أن يهتم بالوسائل التي ينظم بها أمور الناس في المدينة "[2] ، فقام بـ[3] :

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 53 - 54
2 - جاسم صكبان علي : م س ، ص 41
3 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 142

- بناء المسجد النبوي .

- المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة .

- كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة .

ولقد نزل الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند أبي أيوب الأنصاري ، فقد روى البخاري في رواية عن أنس قوله : قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - « أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله هذه داري وهذا بابي ، قال : فانطلق فهيء لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله ».

وكان النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وحده يتولى الفصل في الخصومات بين المسلمين ، واعتبر حكمه ملزما حين نزل قوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرج مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[1] وبذلك يعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول قاض في الإسلام يحكم بين الناس بما ينزل عليه من الوحي ، ويجتهد في بعض الأحيان ، وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود[2] .

2/ غزوات الرسول :

" تطلق الغزوة ويراد منها تلك التي خرج فيها الرسول بنفسه لقتال المشركين وكان يتولى فيها القيادة ، ويراد بالسرية التي أناب الرسول فيها عنه قائدا على الجيش لنفس الغرض ، وقد خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في سبع وعشرين غزوة ، وقاتل في تسع منها بالفعل ، وأن سراياه قد بلغت حوالي الستين سرية ، بعضها ذو أهمية تاريخية ، بحيث ترتبت عليها

1 - سورة النساء ، الآية 65
2 - رحيم كاضم محمد الهاشمي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص 56

آثار بالنسبة للإسلام والمسلمين ، وقد تطلق الغزوة على السرية كما حدث في يوم مؤتة التي لم يخرج فيها الرسول وإنما أناب عنه ، ومع هذا فإنها عرفت في السيرة النبوية بغزوة مؤتة "[1] .

وسنقتصر عل ذكر أهمها ، وهي[2] :

- غزوة بدر :

وسببها أن عيرا لأبي سفيان كانت قد خرجت للتجارة ، فأرادها الرسول - صلى الله عليه وسلم - للمسلمين عوضا عن أموالهم التي تركوها في مكة ، فلما بلغ أبو سفيان عزم الرسول الخروج له ، أرسل إلى قريش يستنفرهم ، فخرجت في جيش قوامه نحو من الألف مقاتل ، وخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في 314 فردا ، غير أن عير أبي سفيان أفلتت ، فطلب من محاربي قريش العودة ، غير أنهم أبوا إلا قتال المسلمين ، فتلاقى الجيشان في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة عند بئر بدر ، وانتصر المسلمون نصرا مؤزرا ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾[3] ، وكان من نتائجها رفع معنويات المسلمين وتعزيز شوكة المسلمين ، ومن نتائجها أيضا حنق اليهود والمنافقين في المدينة على المسلمين فأصبحوا يكيدون لهم الدسائس والمؤامرات .

- غزوة أحد :

بعد هزيمة قريش في غزوة بدر ، راحوا يعدون العدة لأخذ الثأر ، فجهزوا جيشا عدده ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ، وعلى الخيل خالد بن الوليد ، فوقعت المعركة سنة 3 هـ عند جبل أحد ، وقد هزم في هذه المرة المسلمون ، وأصيب فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستشهد عمه حمزة ومعه سبعون من المسلمين - رضي الله عنهم - ، فاحتموا بجبل أحد ، ولعب خالد بن الوليد في هزيمتهم دورا مهما ، ولعل سبب هزيمتهم نزول الرماة من الجبـــل وقد أمرهم الرسول - صلى الله عليه

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 67
2 - نفسه ، ص 68 - ...- 88
جاسم صكبان علي ، مرجع سابق ، ص 44 -...- 52
3 - سورة آل عمران ، الآية 123

وسلم - بعدم النزول لأي ظرف ، قال الله تعالى : ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير** ﴾[1] .

- غزوة الأحزاب (الخندق) :

وقعت سنة 5 هـ ، وذلك أن قريشا بعد انتصارها في أحد أرادت إبادة المسلمين والقضاء على الدعوة الإسلامية ، فألبت عليهم مجموعة من القبائل ، وخرجوا للمدينة ، غير أنهم فوجؤوا بخندق يمنعهم من دخولها ، هذا الخندق كان المسلمون قد حفروه بناء على رأي من سلمان الفارسي - رضي الله عنه - .

حينها حوصرت المدينة ، فعانى المسلمون من نقص الطعام والشراب ، وأصابهم رعب شديد ، قال عنه تبارك وتعالى : ﴿ **وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الضنونا ، هنالك ابتلي المومنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾[2] ، فأرسل الرسول - صلى عليه وسلم - نعيم بن مسعود - وكان قد أسلم حديثا - يخذل عنهم المشركين ويثير الفتنة بينهم ، وأرسل الله تبارك وتعالى ريحا أطفأت نارهم واقتلعت خيامهم ، فعاد المشركون مخذولين ، ولم يمسس المسلمين سوء ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال وكان الله قويا عزيزا** ﴾[3] .

- صلح الحديبية :

في السنة السادسة للهجرة خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - مريدا العمرة ، وخرج معه نحو من الألف والأربعمائة من الصحابة ، وساق الهدي معه ليظهر لقريش عدم نيته للحرب ، فنزل في مكان يسمى الحديبية قريبا من مكة ، لكن ذلك الأمر لم يعجب قريشا فأرسلت تفاوضه في الأمر ، وقد أسفرت المفاوضات على :

1 - سورة آل عمران ، الآية 165
2 - سورة الأحزاب ، الآيتان 10-11
3 - سورة الأحزاب ، الآية 25

- عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات .

- أن يرد الرسول من يأتيه مسلما من قريش دون إذن من وليه .

- ألا ترد قريش من يأتيها من المسلمين .

- من أراد الدخول من القبائل في حلف مع أحد الطرفين فله ذلك .

- رجوعهم هذه السنة دون عمرة ، و أن يعتمروا العام القــادم على ألا يُدخلوا معهم إلا السيوف .

لم تعجب بنود هذه المعاهدة بعضا من الصحابة خاصة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومع ذلك فقد سماه الله تعالى فتحا مبينا - وكان كذلك - ، حيث ظهرت آثاره الإيجابية بمرور الوقت ، ومنها :

- التفرغ لمقاتلة اليهود الذين نقضوا الصلح .

- مكاتبة الملوك والأمراء في أمر الإسلام .

- دخول عدد كبير من مشركي العرب إلى الإسلام ، منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

- تأديب بعض الأعراب الذين كانوا يغيرون على أطراف المدينة .

- فتح مكة :

وسببه أن قريشا أخلت بأحد بنود الاتفاق ، حيث ساندت حليفتها " بكــر " ضد " خزاعة " التي كانت في حلف مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فسار إليهم في نحو عشرة آلاف مقاتل في السنة الثامنة للهجرة ، وعسكر قريبا من مكة بمر الظهران ، فجاءه عمه العباس مسلما ، وكذلك أسلم أبو سفيان بعدما رأى من حلم الرسول – صلى الله عليه وسلم - وعفوه .

دخل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته إلى مكة من جهاتها الأربع ، وطافوا بالكعبة وحطموا الأصنام والأوثان التي كانت داخلها وحولها وهم يرددون : جاء الحق وزهق

الباطل إن الباطل كان زهوقا ، " وأقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمكة 19 يوما ، يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى "[1] .

- غزوة حنين والطائف :

لم يعجب هذا الإنتصار قبيلتا هوازن وثقيف ، فخرجتا تريدان محاربة المسلمين وعلى رأسهم سيد هوازن مالك بن عوف ، ولم يرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قتالا فبعث إليهم يدعوهم للعودة لكنهم رفضوا ، حينها خرج إليهم في اثني عشر ألف مقاتل ، ولما رأى المسلمون عددهم اغتروا فقالوا : لن نهزم اليوم من قلة ، إلا أنهم فوجؤوا بهجوم مباغت من القبيلتان أفزعهم وفرق شملهم وكاد يلحق بهم الهمزيمة ، لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نادى بالمهاجرين والأنصار فتجمعوا حوله وأعادوا تنظيم صفوفهم ، فصارت الكرة إليهم .

بعدها سار الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف ، وقاتلهم من وراء حصنهم نصف شهر دون خروج أحد ، لكن سادات الطائف علموا أن لا فائدة من المقاومة فخرجوا إليه يعلنون إسلامهم .

- غزوة تبوك :

حدثت قبلا معركة مؤتة (8 هـ) بين المسلمين وتحالف بين الروم والغساسنة ، وكان فارق عدد مقاتلي الجيشين كبير (3 آلاف من المسلمين مقابل 200 ألف من التحالف) ، انسحب فيها المسلمون دون هزيمة ، فعزّ على الروم ترك المسلمين يفرون دون استئصالهم ، لذلك جهزوا لهم جيشا عظيما تشكل من الروم ولخم وغسان (قبيلتان شمل الجزيرة) بقيادة هرقل ملك الروم نفسه ، ولما علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بزحفهم استنفر المسلمين للخروج دون أن يخبرهم عن وجهته ، وكان موسم حصاد وحر من السنة التاسعة للهجرة ، لذلك وجدها المنافقون فرصة لتثبيط العزائم وقالوا : ﴿ **لا تنفروا في الحر** ﴾[2] ، لكن المسلمين صبروا واحتسبوا ولم يتخلف منهم سوى ثلاثة ، وصل الجيش إلى تبوك (مدينة شمال الجزيرة العربية) فألقى الله الرعب في قلوب الروم وحلفائهم ، وتفرقوا في البلاد داخل

1 - صفي الرحمن المباركفوري : م س ، ص 293
2 - سورة التوبة ، الآية 81

حدودهم ، وأرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد إلى دومة الجندل لمحاربة من يؤلب الروم من العرب ضد المسلمين وانتصر عليهم .

3/ مكاتبة الملوك والأمراء :

- كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة :

ونصه : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلام أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني ، و تؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى توحيد الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى "[1] .

وتذكر بعض الروايات أنه قد أسلم وصلى عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - صلاة الغائب بعد وفاته . لكن بعضهم يرى عدم إسلامه كما يقول د.محمد كمال شبانة : " وإن كان لم يقيض له أن يدخل الإسلام لسبب أو لآخر "[2] .

- كتابه إلى هرقل ملك الروم :

بعثه مع دحية بن خليفة الكلبي ، ونصه " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فاشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[3] "[4] .

---

1 - نقلا عن محمد كمال شبانة : م س ، ص 91 - 92
2 - نفسه ، ص 97
3 - سورة آل عمران ، الآية 64
4 - نقلا عن محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 251

ولما قرأ الكتاب ، خاف ملك الروم على نفسه وملكه من قومه فلم يسلم .

- كتابه إلى المقوقس عامل هرقل على مصر :

نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواؤ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فاشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[1] "[2] .

- كتابه إلى كسرى أبرويز ملك الفرس :

بعثه مع عبد الله بن حذافة السهمي ، ونصه " من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، ولأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك "[3] .

لكن كسرى مزق الكتاب ولم يسلم ، ولما بلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعى عليه بتمزيق ملكه، ولذا فإن " الله - تبارك وتعالى - سلط عليه ابنه شيرويه فقتله "[4] .

4/ حجة الوداع ووفاته - صلى الله عليه وسلم - :

بعد عام الوفود (السنة 9 هـ) " وإنما سمي كذلك لأن أعدادا هائلة من القبائل العربية وبعضا من سكان المدن بعثوا إلى النبي بوفودهم ، معلنيين خضوعهم له ، ومبايعتهم إياه على الوقوف إلى جانبه "[5] ، خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعه ما يزيد عن المائة ألف من المسلمين إلى الحج في العام العاشر للهجرة ، وبعد صعوده جبل عرفات " خطب فيهم خطبته التاريخية المشهورة ، والتي كانت دستور الإسلام بحق ، كما كانت وصيته الأخيرة للمسلمين .

---

1 - سورة آل عمران ، الآية 64
2 - نقلا عن محمد كمال شبانة : م س ، ص 91
3 - نفسه ، ص 92
4 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 251
5 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 97

قال - صلى الله عليه وسلم - بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبدا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربـا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كلـه (أي ملغى) وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضيع من دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني ليث فقتله ذهيل ، فهو أول ما بدا من دماء الجاهلية .

أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي هو بين جمادى وشعبان .

أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها النـــاس ، اسمعوا قولي واعقلوا ، تعلمون أن كل مسلم أخ نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم ، اللهم هل بلغت ، فقال الجمع من النـــاس : نعم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اللهم فاشهد ».

ثم أقام النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة بقية ذي الحجة ومحرم وصفر ، وفي هذه الأثناء جهز جيش أسامة بن حارثة ليتوجه إلى الشام ، وأمره أن يصل بالجيش - داعيا إلى الإسلام - إلى تخوم البلقاء والدروم من أرض فلسطين "[1] .

بعد ثلاثة أشهر من هذه الخطبة " وفي اليوم التاسع والعشرين من شهرصـــفر 11 هـ شهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - جنازة في البقيع ، فلما رجع - وهو في الطريق - أخذه صداع في رأسه ، واتقدت الحرارة "[2] ، وأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم أن يُمرَّض في بيت عائشة - رضي الله عنها - فإذن له زوجاته بذلك ، حينها حمل وهو يتهادى بين ابني عمه الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - ، دام مرضه - صلى الله عليه وسلم - أربعة عشر يومـــا ، وقد كان يؤمهم حتى ثقل عليه المرض ، فأمهم - وبطلب منه - أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، حتى أسلم روحه لبارئها وهو يقـول : « بل الرفيق الأعلى » يوم الاثنين 13 ربيع الأول سنة 11 هـ (8 يونيه 632 م) "[3] .

بعد انتقال خبر وفاته إلى المسلمين ، ذهل الناس وذهبت عقولهم لشدة الموقف وكربه ، وكان منهم عمر بن الخطـــاب - رضي الله عنه - ، إذ طفق يهدد بقتـــل من يقول بموت محمد - صلى الله عليه وسلم - ، عندئذ قام أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - خطيبا في المسجد فقال بعد أحمد الله وأثنى عليه : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلى قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن قتل مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[4] ، فكأنما لم يعلم الناس بهذه الآية إلا حيت تلاها أبو بكر . ويروى عن الإمام مالك - في هذه المناسبة - قوله : بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفي يوم الإثنين ، ودفن يوم الثلاثاء ، وصلى عليه الناس أفواجا لا يؤمهم أحد ، وقد اختلفوا في مكان دفنه ، فقال بعضهم : ندفنه في مكة مسقط رأسه ، وقال آخرونى: بالبقيع مع أصحابه ،

---

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 101 - 102
2 - صفي الرحمن المباركفوري : م س ، ص 331
3 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 103
4 - سورة آل عمران ، الآية 144

وقال غيرهم : ندفنه في مسجده ، فقال أبو بكر : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما دفن نبي إلا مكانه الذي توفي فيه، فحفر له فيه "[1] .

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 105

تطور المجتمع في العهد الراشدي

1- أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -

1/ نسبه وصفاته :

اسمه عبد الله بن عثمان (أبو قحافة) بن عامر بن عمرو التيمي ، ولد بعد عام الفيل بعاميــن ونصف ، كني بأبي بكر لكونه ممن بكبر بلإسلامه ، ولقب بالصديق لتصديقــه النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد حادثة الإسراء و المعراج ، كان صاحب الرسول في الهجرة ووزيره في شؤونه ، عرف بالأمانة والشجاعة والعفة حتى قبل إسلامه ، اشتغل بالتجارة وجمع منها مالا وفيرا سخره في خدمة الإسلام والمسلمين .

2/ بيعته :

لم يوص الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأحد بالخلافة ، بل تركها شورى بين المسلميــن ، فلذلك اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لأجل أمر الخلافة وأرادوا أن يجعلوها لسعد بن عبادة سيد الأنصار ، فبينما هم كذلك حتى جاءهم عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق فحسما الموقف ، وأشار أبو بكر " إلى أن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش ، لأنه إذا نالتها الخزرج فسوف تنفس عليها الأوس ، وإذا نالتها الأوس فسوف تنفس عليها الخزرج ، فالأصلح أن تبقى في قريش "[1] ، فقال عمر حينها لأبي بكر : " أبسط يدك أبايعك " فبايعه هو وكل الأنصار والمهاجرين من بعده ، " ولم يكن لعلي - رضي الله عنه - رأي مخالف لهذا الإجماع ، وتأخر مبايعته له كان لأمر يتعلق بالخلاف الذي وقع بين أبي بكر وفاطمة - رضي الله عنهما - من أجل مسألة ميراثها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "[2]

3/ سياسته العامة وأعماله :

" لقد أعلن أبو بكر هذه السياسة للحكم في خطبته الشهيرة التي ألقاها على المسلمين في هذه المناسبة ، ونصها : أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 110
2 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 351

حتى آخذ له حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله "[1] .

وبخصوص الوضع العام في وقته ، فإن الجيش الذي عقد لواءه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأسامة كان ينتظر ما يأمر به الخليفة الجديد ، كما ارتد بعض العرب من الذين لم يفهمو الإسلام ويتشربوا معانيه ، ومنعوا أداء الزكاة ، هذا وإن دولتي الروم و فارس كانتا تراقبان الوضع وتنتظران ما تأول إليه الأحداث ، لذلك كله نجد أبو بكر قد عمل على[2] :

- تجهيز جيش أسامة وتسييره .

- قتال أهر الردة ومانعي الزكاة .

- جمع القرآن الكريم باقتراح من عمر - رضي الله عنه - ، وقد كلف بهذه المهمة زيد بن ثابت - رضي الله عنه - ، وهذا في السنة 12 هـ ، بعد معركة اليمامة حيث قتل فيها سبعون من القراء .

- إرسال خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة الشيباني - رضي الله عنهما - إلى العراق ، ففتحوا بلادا كثيرة وعادوا منتصرين غانمين .

- إرسال جيش لغزو الروم ، وقد جعل على رأسه أبا عبيدة بن الجراح ، ثم ألحق بهم خالد بن الوليد مع نصف جيشه الذي ذهب به إلى العراق ، لكن أبا بكر توفي قبل أن يتحقق النصر .

4/ وفاته :

توفي - رضي الله عنه - وعمره بعمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أي ثلاث وستون سنة ، وكان ذلك بعد بقائه في الخلافة قرابة السنتين والنصف .

---

1 - محمد كمال شبانة : م س ، ص 111

2 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 351 - 352

2- عمربن الخطاب - رضي الله عنه -

1/ نسبه وإسلامه :

" هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن علي بن كعب ، الجد الثامن للرسول ، تلك القبيلة العدنانية القرشية ، ومعظم المؤرخين لا يحددون تاريخا لولادته " ، وذكر أنه ولد سنة 40 ق هـ .

أسلم سنة ست من البعثة بعد أن دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دار الأرقم وهو يريد به شرا ، وقيل أن إسلامه كان بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة ، كناه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأبي حفص يوم بدر (والحفص الأسد) ، ولقبه بالفاروق لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، كان إسلامه قوة وعزة للمسلمين ، فعن صهيب بن سنان قال : لما أسلم عمر - رضوان الله عليه - ظهر الإسلام ودعي إليه علانية .

شهد مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - غزوة بدر ، وأحد ، والخنــدق ، وبيعة الرضوان ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، وغيرها من المشاهد .

2/ توليه الخلافة :

" ذكر الطبري وابن الجوزي وابن كثير أن أبا بكر - رضي الله عنه - خشي على المسلمين أن يختلفوا من بعده ثم لا يجتمعوا على رأي ، فدعاهم - لمــا أثقل عليــه المرض - إلى أن يبحثوا لأنفسهم عن خليفة من بعده ، ورغب أن يكون ذلك في حياته وبمعرفته .

إلا أن المسلمين لم يتفقوا فيما بينهم على من يخلف أبا بكر في تلك الفترة القصيرة ، فوضعوا الأمر بين يديه ، وقالوا له : رأينا إنما هو رأيك ، وعندئذ أخذ يستشير أعيــان الصحابة ، كلا منهم على انفراد ، ولما رأى اتفاقهم على جدارة عمر وفضله ، طلع على الناس وأخبرهم أنه لم يأل جهدا في اختيار من هو أصلح لهم من بعده ، وأنه قد استخلف عليهم عمر ، فقالوا جميعا : سمعنا وأطعنا " .

ولما أجمع الصحابة على ذلك ، دعا أبو بكر عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - ، وأملاه كتابا يعهد فيه بالأمر إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، ولما أتمه خرج عثمان بن

عفان - رضي الله عنه - فقرأه على الناس ، فامتثلوا أمر خليفتهم وبايعوا عمر - رضي الله عنه - على الخلافة .

3/ أعماله السياسية و الإدارية :

العدل وعمر لا يفترقان في ذهن كل مسلم ، فإذا ذكر أحدهما خطر على الذهن الآخر ، وذلك أنه ساس الدولة الإسلامية بالعدل ، مع المسلم وغيره ، وقد ذكر العقاد في كتابه "عبقرية عمر " ، أسبابا رأى أنها كانت سببا لعدالته ، نلخصها في[1] :

- لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه .

- لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه .

- لأن آله من بني عدي قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس .

- كان عادلا بتعليم الدين الذي استمسك به .

- وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية والقوة الفردية وعبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات .

وهذه طرفا من أعماله التي قام بها أثناء خلافته[2] :

- عزل خالد بن الوليد ، وتولية أبو عبيدة مكانه ، وكتب إلى البلاد والأمصار يقول لهم : إني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته ، و كان خالدا ابن خالة عمر - رضي الله عنهما - وتوفي في خلافته بحمص .

- فتح دمشق ، وحمص وبعلبك ، والبصرة و الأبلة ، بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وكان ذلك كله في سنة 14 هـ .

- و في هذه السنة جمع الناس على صلاة التراويح عشرين ركعة .

1 - عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية ، مج 2 ، ص 329
2 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 357 - 358

- وفي سنة 15 هـ فتحت الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنها فتحت صلحا .، وفيها كانت وقعت اليرموك والقادسية ، وفيها مصر سعد بن إبي الوقاص الكوفة ، وفيها فرض عمر الفروض ودون الدواوين ، وأعطى العطاء بمقتضى السابقة في الإسلام .

- وفي سنة 16 هـ فتحت الأهواز والمدائن ، وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى ، وهي أول جمعة جمعت بالعراق .

- وفيها (16 هـ) : كانت وقعة جلولاء ، وهزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى الري ، وفتحت تكريت ، وسار عمر ففتح بيت المقدس وخطب بالجابية خطبته المشهورة وأقام بها عشرة أيام ، وفتحت قنسرين عنوة ، وحلب وأنطاكية ومنبج صلحا ، وفي ربيع الأول من هذا العام كتب التاريخ الهجري بمشورة علي - رضي الله عنه - .

- وفي سنة 17 هـ زاد في المسجد النبوي ، وفيها كان عام الرمادة ، واستسقى عمر للناس متوسلا بالعباس ، وفي هذه السنة فتحت الأهواز صلحا .

- وفي 18 هـ وقع طاعون عمواس بالشام فأتى على كثير من جند المسلمين ، فبلغ الخبر عمر - رضي الله عنه - وهو متجه إلى الشام فعاد بالناس إلى المدينة .

- وفي 19 هـ فتحت قيسارية عنوة .

- و في 20 هـ فتحت مصر عنوة ، وقيل صلحا إلا الإسكندرية ، وفتحت المغرب عنوة ، وفيها هلك قيصر الروم ، وأجلى عمر اليهود عن خيبر و نجران .

- وفي 21 هـ فتحت الإسكندرية عنوة وفتحت نهاوند .

- وفي 22 هـ فتحت أذربيجان عنوة وقيل صلحا ، والدينور وهمدان عنوة ، وفتحت طرابلس الغرب والري .

- وفي 23 هـ فتحت بقية بلاد فارس ، وحج عمر - رضي الله عنه - ، وكانت آخر سنة له .

4/ استشهاده :

" قتل الخليفة العادل غدرا بيد مولى من موالي الفرس يدعى فيروز ويلقب بأبي لؤلؤة، وقد كان لدى المغيرة بن شعبة ، وذلك بأن طعن عمر بخنجر ست طعنات ، إحداهن تحت سرته فقضت عليه ، في شهر ذي الحجة من عام 23 هـ ، بعد أن استمرت خلافته عشر سنوات وستة أشهر ، وكان سنه يومئذ ثلاثا وستين سنة ، ويروي المؤرخون أن الفرس كانوا من وراء هذا الاغتيال ، حقدا على الخليفــة الذي أفنى دولتهم وجعلها جزءا من الدولــة الإسلاميــة ".

3- عثمان بن عفان - رضي الله عنه -

1/ نسبه وإسلامه :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه أروى بنت كريز ، وأمها أم حكيم بنت عبد المطلب ، ولد في الطائف سنة 47 ق هـ ، كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو ، فلما رزق بعبد الله من رقية بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - صار يكنى به ، وكان يلقب بذي النورين لزواجه من ابنتي الرسول - صلى الله عليه وسلم - رقية ثم أم كلثوم .

نشأ في أسرة أموية ذات عز وشرف ، وكان أبوه تاجرا كبيرا ، فلما مات ورث ذلك منه ، ولم يكن بخيلا على قومه بماله لذلك أحبته قريش حتى في الجاهلية .

أسلم على يد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في بداية الدعوة ، فقيل أنه من بين الثمانية الأوائل السابقين بالإسلام ، هاجر الهجرتين ، وشهد مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - المشاهد كلها إلا تلك التي خلفه فيها بأمر منه .

2/ توليه الخلافة :

لما طعن عمر - رضي الله عنه - جعل أمر الخلافة في ستة من النفر ، يختارون واحدا منهم ، هؤلاء النفر هم : عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الرحمن بن عوف .

" فلما مات عمر اجتمع هؤلاء الستة ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل أحدهم ليختار واحدا من بين الرفقاء الخمسة الباقين ، وليتصل بالمسلمين في شأن هذا الاختيار ، فوافق الباقون على هذا الاقتراح ، وخاصة بعد أن رضي عبد الرحمن نفسه أن يكون هو الخارج من بينهم ، فعاهدوه وعاهدهم على الإخلاص والحق ، واتصل من جانبه برفقائه الخمسة ثم بالمسلمين من بعد ، فتبين له أن الإجماع يكاد ينعقد على حصر الخلافة في واحد اثنين : عثمان وعلي ، وأن أسهم عثمان تكاد هي الغالبة ، فاختير لذلك، ولأنه أكبر سنا وألين طبعا ، ولاعتبارات أخرى ربما سكت عنها " .

3/ سياسته وأعماله :

يمكن أن نجمل ما قام به خلال خلافته في :

- في السنة الأولى لتوليه الخلافة فتحت الري ، وكانت قد فتحت ثم نقض فتحها ، وفيها ولى على الكوفة سعد بن أبي وقاص وعزل المغيرة بن شعبة .

- وفي سنة 25 هـ عزل عثمان سعدا عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخوه لأمه .

- في سنة 26 هـ زاد في المسجد الحرام ووسعه ، واشترى أماكن من أصحابها وضمها إلى المسجد .

- وفي 27 هـ غزا معاوية قبرص ، وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فغزا أفريقية وافتحها ، وفتحت الأندلس في العام ذاته .

- و في 29 هـ زاد عثمان في مسجد المدينة المنورة ووسعه ، وفيها فتحت مدن كثيرة أخرى .

- وفي 30 هـ فتحت بلاد كثيرة من خراسان وكثر الخراج من جراء ذلك .

- وفي 33 هـ غزا عبد الله بن أبي السرح الحبشة .

- وبعد غزو أرمينية وأذربيجان ، جمع القرآن في مصحف واحد ، ثم أرسل إلى كل من الأمصار نسخة منه (وقيل عددها سبعة) ، وأحرق باقي المصاحف .

مآخذ على سياسة عثمان :

- أخذ عليه أنه كان يولي أقاربه من بني أمية على الأمصار بعد عزل ولاتها .

- وأخذ عليه إغداقه العطايا على بني أمية خاصة دون غيرهم .

- وأخذ عليه تسامحه الشديد وسهولته في تعامله عكس ما عهدوه في خلافة عمر من شدة وحزم .

" وقد جرّت عليه هذه السياسة نقمة كثير من الناس ، وكان ذالك هو المنطلق والمعتمد الأول لليهودي المعروف عبد الله بن سبأ وأعوانه في بث أسبـاب الفتنـة وإيقـاد نيـرانهـا " .

" وتؤتي الفتنة ثمارها وتنجح خطة ابن سبأ وينزلق المسلمون في تلك الهوة يومئذ ، فقد زحف الثائرون من أهل الكوفة والبصرة إلى المدينة ، وتلاهم ثائرو مصر حيث كان يقيم ابن سبأ ، الذي ما فتئ يثير الرأي العام ضد والي عثمان بها عبد الله بن أبي سرح وأخيه في الرضاعة ، ولكن الثائرين جميعا عادوا من حيث أتوا ، بعد أن تصدى لهم علي بن أبي طالب ناصحا إياهم باتباع طرق أخرى للإصلاح ، لأن هذه الوسائل - على حد تعبيره - ستؤدي إلى إضعاف شوكة الإسلام ، بالإضافة إلى أن عثمان - من جانب آخر - دافع عن نفسه ، ووعد بتعديل سياسته العامة " .

4/ استشهـاده :

إن بعض الروايات تزعم أن عبد الله بن سبأ لما فشل في خطته ، زور كتابا صادرا عن عثمان إلى واليه بمصر يأمره فيه بقتل الثائرين ، لكن البوطي يروي قصة أخرى ، مفادها أن عثمان بعث بكتاب مع محمد بن أبي بكر يوليه فيه على مصر بإشارة من الصحابة ، وفي

طريقه إليها لقي غلاما أسود يحمل كتابا مختوم عليه بختم عثمان ، وفيه يأمر واليه على مصر بقتل الثائرين ، فرجع بالكتاب إلى المدينة وهناك علم الصحابة أن الكتاب بخط مروان ، فطالبوا به لكن عثمان منعه عنهم ، ولما انتشر الخبر أقبل الناس فحاصروا بيت عثمان " بالرغم من اندفاع خيرة من شباب المسلمين للذود عن الخليفة ، بعد أن ترامى إليهم صريخه واستغاثته ، وتمكن هؤلاء المدافعون عن فك الحصار ، وكان من بينهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وبعض الحجاج ، ولكن بعض الثوار كانوا قد تسوروا الدار ، بعد أن مضى على حصارهم لها اثنان وعشرون يوما ، وهاجموا عثمــان وهو يقرأ القرآن ، حيث ضربــه رجل يدعى (الغافقي) بحديدة كان يحملها ، وتبعه آخر فضربه بالسيف " .

واستشهد - رضي الله عنه - بعد توليه الخلافة اثنا عشرة سنة وكان عمره 82 عاما .

4- علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

1/ مولده ونشأته :

ولد بمكة سنة 23 ق هـ ، أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، يقال أن أمه سمته حيدرة (وهو من أسماء الأسد) على اسم أبيها ، لكن أباه غيره فسماه عليا وبه عرف واشتهر .

هو أصغر إخوته جعفر وعقيــل وطالب ، ولما أصاب قريشا قحط ذهب الرســول - صلى الله عليه وسلم - و عميه العباس وحمزة إلى أبي طالب ليحملوا عليه نفقة أبنائه ، فقال : دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليا .

نشأ في بيت النبوة ، فكان من أوائل من أسلم ، لكن اختلف في سنه لما أسلم فقيل سبعا وقيل عشرا ، لما بلغ الخامسة والعشرين زوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بابنته فاطمة وكانت في الثامنة عشرة .

عرف بالشجاعة والقوة ، ومن شجاعته نومه في فراش الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليلة الهجرة ، وثباته في أحد وحنين حين فر الناس ، وفتحه لحصن خيبر ، وغير ذلك كثير .

2/ توليه الخلافة [1] :

بعد مقتل عثمان " خرج علي - رضي الله عنه - من دار عثمان مغضبا لما قد وقع ، وجاءه الناس يهرعون إليه وقالوا له ، لابد لنا من أمير ، فمد إلينا يدك نبايعك ، فقال لهم علي: ليس ذلك إليكم ، وإنما ذلك إلى أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا ، فقالوا له : ما نرى أحدا أحق بها منك ، مد يدك نبايعك ، فبايعوه "

وتمت بيعته في شهر ذي الحجة سنة 35 هـ ، لكن امتنع عنها بنو أمية وطالبوا بالقصاص من قتلة عثمان أولا قبل تولية أي خليفة للمسلمين ، وكذلك تخلف عنها جمع من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ...

3/ سياسته :

" استهل علي خلافته بأن عزل من ولاهم عثمان ، وأقام غيرهم مقامهم ، ولكن هؤلاء الجدد عادوا من حيث أتوا بعد أن سدت في وجوههم أبواب الولايات التي أسندت إليهم ... كما أن عليا استرد ما سبق أن أقطعه أو منحه عثمان لأقاربه من بيت المال ".

ثم إنه حدثت فتن واضطرابات وحروب ، ولم تهدأ طيلة توليه الخليفة ، ومنها : موقعة الجمل ، وموقعة صفين ، و حروب الخوارج .

- موقعة الجمل : حدثت سنة 36 هـ بين علي وجيشه من جهة ، وعائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير وجيشهم من جهة ثانية (رضي الله عن جميع الصحابة) ، وذلك أن عائشة خرجت إلى البصرة لتكوين جيش يأخذ بدم عثمان ، ومعها طلحة والزبير ، ولما علم علي بذلك قاد جيشه لإخماد الفتنة ، والتقا الفريقان وبدآ مفاوضات انتهت بعقد صلح، لكن البعض ممن لم يرضوا بهذا الصلح أعملوا السيف ليلا في كلا مخيمي الجيشين ، فقامت الحرب بينهما ، قتل فيها عشرة آلاف من جيش البصرة منهم الزبير وطلحة وابنه، وقتل من جيش علي خمسة آلاف .

1 - محمد سعيد رمضان البوطي : م س ، ص 368
محمد كمال شبانة : م س ، ص 150

وسميت " موقعة الجمل " لأن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كانت تركب جملا ، وبعد انتهاء المعركة أكرم علي عائشة ، وعامل محاربيها معاملة حسنة ، فأمر بألا يجهز على جريح أو يتابع هارب ، وألا تؤخذ أموال أو تسبى نساء .

- موقعة صفين : وقوعها كان بعد سنة من موقعة الجمل ، بين علي ومعاوية ، إذ أن عليا لما أمر بعزل ولاة عثمان رفض معاوية وأصر على المطالبة بدم عثمان ، فخرج إليه علي لحربه، والتقى الجيشان في صفين ، ودارت الحرب بينهما لأيام ، رجحت فيها الكفة لصالح علي ، وهنا دعي إلى التحكيم من قبل معاوية ومن معه فوافق علي ، واختار أبا موسى الأشعري محكما من قبله ، بينما اختار معاوية عمرو بن العاص ، وانتهيا إلى ترك الأمر لكبار الصحابة ممن توفي الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راض ، (وقصة الاتفاق عل خلع علي ومعاوية ثم غدر عمرو بتثبيت صاحبه لم تثبت ، فكل رواتها مطعون في روايتهم) ، لكن ظهرت فتنة الخوارج قبل أن يتم ذلك .

- فتنة الخوارج : عند قبول التحكيم انحازت جماعة من جيش علي إلى حروراء لعدم رضاهم به (فعرفوا بالحرورية) ، فبعث علي إليهم عبد الله بن عباس يحاورهم فأقنع منهم جمعا وانسحبوا ، بينما أصر الباقي على رأيه ، ورغم ذلك فإن عليا لم يقاتلهم حتى بدأوه هم بالقتال ، فقد تسلل بعضهم بين جند علي ، وأخذوا في مناوشتهم ، وقتلو عبد الله بن خباب بن الأرت ومعه نسوة ، فاضطر علي لإبادتهم بمكان يسمى النهروان عام 38 هـ ليتفرغ لحرب معاوية.

4/ استشهاده :

عظم أمر الخوارج واشتد بأسهم ، ولم يعد الأمر منهم أمر اختلاف سياسي ، بل انتقل ليكون عقديا ، فكفروا كل من قبل بالتحكيم ، ولذلك أزمعوا على قتل الثلاثة الذين كانوا سببا في هذا التحكيم :

- فأما معاوية فإنه أصيب في وركه وقطع عرق له ، لكنه عولج ونجا من الضربة .

- وأما عمرو بن العاص فإنه وعك من الليلة التي أريد فيها قتله ، فأناب عنه خارجة بن حذافة ليأم الناس ، ولما قام إماما طعن بالسيف فمات ، وسلم منها عمرو .

- وأما علي فأمره كان كالتالي :

" كان عبد الرحمن بن ملجم ، وهو واحد من رؤوس الخوارج ، قد خطب امرأة يقال لها قطام فائقة الجمال ، وكان قد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، فاشترطت عليه أن يقتل عليا – رضي الله عنه - ، فقال : والله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي ، فتزوجها ودخل بها ، وأخذت تحرضه على قتل علي - رضي الله عنه - .

وفي ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام 40 هـ ، كمن عبد الرحمن بن ملجم - ومعه اثنان من أعوانه - مقابل السدة التي يخرج منها علي – رضي الله عنه – عادة ، وخرج كعادته يوقظ الناس لصلاة الفجر ، ففاجأه ابن ملجم وضربه بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته - رضي الله عنه - .

وقال لأصحابه ، وقد علم أن ابن ملجم هو الذي فعل به ذلك : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به ، ولما احتضر- رضي الله عنه - جعل يقول : لا إله إلا الله ، لا يقول غيرها ، وقد توفي عن ثلاث وستين عاما . وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ".

تاريخ النظم في عهد الدولة الأموية

لم يكن للعرب قبل الإسلام كتاب مدون ، فكان القرآن الكريم أول كتاب عرفوه ، وقد أنزل مجزءا في 23 سنة ، وكان لكل آية توقيتها ومناسبتها ، مما جعل أثرها في القلوب والعقول راسخا ، إذ تشتت آياته في صدور الحفاظ ، والخوف من نسيانها دفع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تدوين الآيات لحفظها من النسيان والضياع ، وقد اختار الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذه المجموعة من كتاب الوحي الذين كتبوا على رقاق الحجارة الرقيقة والرقع وجريد النخيل والجلود والعظام والألواح ، ومن أبرز كتاب الوحي : الإمام علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب الأنصاري وأبو الدرداء - رضي الله عنهم -، أما الحديث فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن كتابته بادئ الأمر ثم أذن فيه، وقد علل العلماء ذلك بأن النهي كان خوفا من اختلاط القرآن الكريم به، ثم أذن فيه بعد أن علم الصحابه أسلوبه وبلاغته وبيانه وتمايزه عن أسلوب الحديث النبوي، فؤمن بذلك ما خشي منه أول الأمر.

ثم من القرآن والحديث، تفرعت وتشعبت علوم شتى، منها الفقه والتفسيروالغة والأدب، والغاية منها حفظ القرآن والسنة من التحريف والتعطيل والتبديل. فإن الفتوحات اتسعت ودخل في الإسلام عجم لا يتقنون لغته ولا يتفهمون مقاصده، وفشى فيهم اللحن والخطأ في النطق أدى إلى تحريف معاني القرآن والحديث، ومنها الحادثة التي تروى أن رجلا سمع أحدهم يتولوا قوله تعالى " أن الله بريء من المشركين ورسوله " بكسر اللام ، فقال: وأنا أبرأ ممن برئ منه الله تعالى، حتى صحح له ذلك وأن اللام مرفوعة، فحينها قال: وأنأ أبرأ ممن برئ منه الله ورسوله، ثم إنه حدثت فتن أدت إلى ظهور فرق باطلة تلوي أعناق معاني القرآن لتوافق هواها، وتسند أحاديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كذبا وزورا لتنتصر بها لما تدعي أنه الحق، والبعض يفعل ذلك ظنا منه أن ذلك في خدمة الإسلام والترغيب فيه، ومن الطرائف أنه قيل لبعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"، فقال: نحن نكذب له لا عليه.

إن اتساع الفتوحات وشمولها لدول كانت لها حضارات سابقة انعكس على ميادين كثيرة شملت النظم السياسية والإدارية، وطرائق البناء العمارة، ومسائل الطب والصيدلة وغيرها،

ساعد في ذلك دعوة الإسلام إلى التعلم ومدح العلم والعلماء في آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون واللذين لا يعلمون"[1]، وقوله: " إنما يخشى الله من عباده العلماء"[2].

1/ السياسة والإدارة[3]:

تسمى بالدولة الأموية نسبة إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (يلتقي نسبه بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم عند عبد مناف) ، وأمية هو جد أبو سفيان والد معاوية (أول خليفة أموي) ، و كذلك جد الحكم والد مروان (و مروان هو أول من حكم من الفرع المرواني) ، وتبدأ الدولة الاموية بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الحكم لصالح معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة 41هـ، وتستمر إلى سقوطها على يد العباسيين سنة 132هـ، وقد تعاقب عليها أربعة عشر خليفة، اختلفت توجهاتهم في الحكم السياسة وكذا مدة حكمهم.

وهذا الجدول يبين من تولى الخلافة وسنوات حكمه:

1 -الزمر: الآية 9
2 - فاطر، الآية 28
3 - د.عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ص 135 وما بعدها و حمدي شاهين : الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات ، ص 462

	الخليفة	سنوات حكمه (هـ)
01	معاوية بن أبي سفيان	60-41
02	يزيد بن معاوية	64-60
03	معاوية بن يزيد	64
04	مروان بن الحكم	65-64
05	عبد الملك بن مروان	86-65
06	الوليد بن عبد الملك	96-86
07	سليمان بن عبد الملك	99-96
08	عمر بن عبد العزيز بن مروان	101-99
09	يزيد بن عبد الملك	105-101
10	هشام بن عبد الملك	125 -105
11	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	126-125
12	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	126
13	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	127-126
14	مروان بن محمد بن مروان	132-127

لقد كان شكل الحكم في الدولة الأموية "ملكا مطلقا يرتكز في ظاهره على الوازع الديني". أما أنه ملك فلأن الخلافة كانت قد انقلبت من شورى صحيحة إلى شورى شكلية، وأصبح انتقالها من خليفة إلى خليفة بالإرث. وأما أنه كان مطلقا فلأن الخليفة لم يكن يتقيد في حكم

البلاد الإسلامية وإدارتها بدستور موضوع، ولم يكن هنالك مجالس ثابتة رسمية، ولقد كانت السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية تجتمع في شخص الخليفة، وأما أن هذا الملك كان يرتكز في ظاهره على الوازع الديني فلأن الخلافة الأموية كانت في ظاهرها تتمة لدولة الخلفاء الراشدين، ولا عبرة بالبيعة الدينية التي كانت تسبق تنصيب الخليفة الأموي الجديدة، ولا بالأيمان التي كان يقسمها المبايعون " إذ كان الإكراه فيها أكثر وأغلب ".

وهكذا كان الخليفة الأموي رئيس الدولة والمشرع والقاضي والقائد في الجيش والإمام في المسجد. ومع أن الخليفة الأموي لم يرد أحيانا أن يتحمل جميع هذه التبعات، أو لم يستطع ذلك، فإنه كان دائما يعين الذين يجب أن يقوموا بها رأيا تعيينا شخصيا، وكان جميع القضاة والولاة والقواد مسؤولين تجاهه.

ولما تولى الفرع المرواني الخلافة جعل ولاة الأمصار كلهم من أهل البيت المالك (ما عدا العراق، ولكن اتفق أن كان في العراق قبل الحجاج بشر بن مروان أخو عبد الملك) . والظاهر من هذه السياسة أن الخليفة كان يريد أن يجعل ولاة الأمصار من أعضاء أهل البيت المالك ليصرف أولئك الأعضاء عن التفكير في طلب الخلافة إذا كان قد سبق لهم أن فكروا فيها.

وكان جميع الخلفاء الأمويين عربا أقحاحا، من جهة الأب والأم، ما عدا يزيد الثالث (ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان) فإنه كان ابن أمة.

ولاية العهد

ومع أن معاوية قد جعل الخلافة وراثية فإنه لم يكن هنالك نظام ثابت لتوارث الملك، لقد كان المفهوم منها أن تنتقل الخلافة دائما إلى أفضل فرد في الأسرة الأموية الحاكمة، وليس من الضروري أن تنتقل من الأب إلى ابنه – وإن كان أكثر الخلفاء قد حرصوا على نقلها إلى أبنائهم – فقد انتقلت من معاوية إلى ابنه يزيد، كما أنها انتقلت من الوليد إلى أخيه سليمان إلى ابنه عمر بن عبد العزيز.

ويدافع ابن خلدون عن ولاية العهد : بأن ولاية العهد (أي مجيء خليفة بعد الآخر) كانت الشورى المطلقة بين جميع المسلمين حينما كان " الوازع الديني " قويا جدا في النفوس، فكان الجميع يتوخون المصلحة العامة، أما بعد أن ضعف الوازع الديني وقوي الوازع العصباني

(وازع العصبية) فلو عهد (خليفة) إلى غيرمن ترتضيه العصبية لرد العهد وانتقض أمره (أمر العهد) وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف. والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه (مع أنه كان يومذاك في غير بني أمية، وفي بني أمية أنفسهم، من هو أفضل من يزيد) إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم – وهو عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم. فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع ...".

السلطة التشريعية:

لم يكن في الإسلام سلطة تشريعية ولا جاز ان يكون هنالك مثل هذه السلطة، لأن القرآن الكريم كان شريعة منزلة، وكان الحديث الشريف متمما لتلك الشريعة. وعمل الخليفة كان تنفيذ الشريعة المنزلة، لا وضع شرائع جديدة.

ولكن الفقهاء كانوا أحيانا يختلفون في تأويل بعض الآيات أو تفسير شيء من الحديث فنشأت حاجة إلى "المجالس الخاصة"، وهي أن يدعو الخليفة بين وحين آخر نفرا من الصحابة أو التابعين أو بعض العلماء المعروفين يسامرهم في الأدب والفقه والسياسة والأخبار ليتفقه منهم في بعض وجوه السياسة والإدارة أو ينظر في الحقيقة إلى حاجة الدولة الإسلامية في أقطارها المختلفة.

وقد كان الخليفة أحيانا يستقدم الوفود من البلدان المختلفة يستخبرهم أحوال بلادهم، كما كان يفعل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز، وكثيرا ما كان الخليفة يعتمد على الولاة أنفسهم في ذلك.

وقد تعرض مشكلة خاصة فيجتمع بنو أمنية – كما فعلوا في الجابية بعد موت معاوية بن يزيد – أو يجتمع الخليفة ببعض زعماء الأقطار كما اتفق لعبد الملك حينما عظمت نقمة العراقيين على الحجاج، أو كما اتفق في مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج وفي استدعائه وفدا من سكان بلاد ما وراء النهر، وهكذا نرى أن الحاجة مست منذ أيام بني أمية إلى تقليب النظر في أحوال البلاد في الناحة السياسية والناحية الدينية أيضا.

ولم يكن للحكومة مكان خاص مستقل، بل كان الخليفة يباشر الأعمال في بيته، وكذلك كان يفعل الوالي، وكان معاوية يستقبل مساعديه ووزراءه في بيته الخاص الملاصق للجامع الأموي، وكان سريره أيضا في بيته. أما القضاء فكان الخليفة يباشره في المسجد لا في بيته، فبيت الخليفة إذن كان مستقر السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية (أي القصر)، وأما المسجد فكان المحكمة.

ولقد درج الخلفاء كلهم إلى أيام بني العباس على أن يكون القصر ملاصقا للمسجد كما نرى في دمشق وبغداد. وعى هذا سار الولاة أيضا كما نرى في الكوفة حيث نجد المسجد لصيق دار الأمارة، وكما نرى في واسط.

السلطة التنفيذية:

كان الخليفة يدير البلاد الإسلامية شخصيا أو كان يعين من قبله من يدير بعض المقاطعات أو الأعمال. على أن الأمويين لم يفصلوا تماما بين أعمال هؤلاء الولاة والقضاة والقواد، فالمهلب لم يكن قائدا فقط بل كان واليا وعاملا أيضا، وكان له حق التصرف بما يجبي من أموال البلاد التي في المشرق، وبأن يدير مقاطعته ويعين لها في حياته أو بعد موته من يشاء. وكذلك الحجاج فقد عينه عبد الملك واليا على العراق، ولكنه كان يفصل في الدعاوى ويعاقب ويقضي ويقود الجيوش ويوجهها إلى الفتح ويعين الولاة على البلاد التي فتحتها جيوشه.

غير أن أحوال الحياة والحكومة كانت في أيام بني أمية قد تشعبت وجوهها، وأصبحت البلاد بحاجة إلى ما يسمى اليوم بالوزارة، فاتخذ الأمويون منذ منذ أيام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يدعون أيضا: فآل المهلب والحجاج كانوا من وزراء بني أمية لا بمعنى أن منصب الوزارة كان قد أصبح محدودا معروفا، بل بمعنى أن هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ويقومون بجميع الأعمال التي يقوم بها الوزراء عادة في كل زمن.

وقبل التبسط في الإدارة الأموية يجب أن نعلم شيئا عن الوزارة إلى أيامهم: لا شك في أن العرب عرفوا الوزير بمعنى المساعد والشريك في الأمر، والذي يساعد في حمل الأعباء، كما جاء في قوله تعالى ((واجعل لي وزيرا من اهلي، هارون أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري)).

وكذلك رأينا في أيام الرسول أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستشيرهما في الملمات، ويساعدانه في الأمور، وكذلك كان عمر وزيرا لأبي بكر ، ثم جاء عثمان بن عفان فكان مروان بن الحكم كاتبا له وأمينا ينفذ عنه كل ما شاء، ولم يتأخر الإمام علي عن استشارة بعض أعوانه من الصحابة في كثير من الأمور.

فلما جاء بنو أمية اختاروا بعض مساعديهم من أهل الدنيا لا من أهل الدين، كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف. وهكذا أخذت الإدارة الإسلامية منذ أيام الأمويين تكتسب الصبغة السياسية الحديثة، غير أنها عادت في أيام عمر بن عبد العزيز سيرتها الدينية الأولى، فقد كان لعمر ثلاثة نفر يأخذ بآرائهم في كل شيء هم أخوه سهل، وابنه عبد الملك، ومزلاه مزاحم، وكان اتجاه هؤلاء دينيا مثل اتجاه عمر بن عبد العزيز لا دنيويا كاتجاه زياد والحجاج.

وكان معنى الوزارة في في بني أمية " حجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية". قال ابن خلدون : "وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد، ثم استفحل الملك بعد ذلك... وكانت الوزارة أرفع المراتب في دولة بني أمية، وكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغي ذلك"

تشمل السلطة التنفيذية اليوم "الوزارة التي تقوم بتنفيذ ما تقره السلطتان التشريعية والقضائية" باسم الملك في البلاد الملكية وباسم الشعب في البلاد الجمهورية، أما في صدر الإسلام فقد كانت هذه السلطات مجتمعة في شخص الخليفة، ومع أن معاوية اتخذ المساعدين والوزراء، فإنه لم يتخل عن النظر شخصيا في أمور الدولة، لقد كان يستعرض الشؤون العامة مرتين كل يوم على الأقل: إذ يدخل عليه وزراؤه في الصباح على الطعام فيكلمونه فيما يريدونه من يومهم إلى العشي، ثم يدخلون عليه بعد صلاة العشاء فيذاكرونه فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم.

ولكن الخليفة منذ أيام الخلفاء الراشدين كان قد شعر باستحالة الإشراف على الأعمال، فأنشأ الدواوين المختلفة، فلما جاء معاوية كان في الإسلام أربعة دواوين: ديوان الرسائل وديوان الجند وديوان الناس وأعطسياتهم وديوان الخراج، ثم أزجد معاوية ديوانا حامسا جديدا

هو ديوان الخاتم. وكانت الخواتم في خزائن الملوك لا تدفعها إلى الوزراء، فاطرد الأمر على ذلك حتى ملك بنو أمية وأفرد معاوية ديوان الخاتم وولاه عبيد بن أوس الغساني وسلم الخاتم إليه، وكان منقوش على فصه "لكل عمل ثواب" ، وكان سبب ذلك أن معاوية كتب لعمرو بن الزبير إلى بعض عماله بمائة ألف درهم، ففرق عمرو الهاء وجعلها ياء، وأخذ مائتي ألف درهم، فلما مرت الرقعة بعدئذ بمعاوية ذكر أنه لم يصله إلا بمائة ألف درهم، فأحضر العامل الكتاب فوقف معاوية على الأمر فاتخذ ديوان الخاتم[1].

وفي أيام يزيد بن الوليد أصبح للخاتم ديوانان: ديوان الخاتم الكبير، وديوان الخاتم الصغير.

ثم كانت الحاجة قد دعت، منذ صدر الدولة الأموية، إلى دواوين جديدة لوجوه الحياة التي استجدت، فقد رأينا في أيام الوليد بن عبد الملك كاتبا يكتب له على المستغلات في دمشق، وفي أيام سليمان كان عبد الله بن عمرو بن الحارث يكتب على النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق، وفي أيام هشام كان قبيصة بن ذؤيب يتولى ديوان الصدقة، والكتابة على الصدقة قديمة كانت منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يكن لها ديوان. ثم كان هنالك ديوان الخاصة، أي الديوان الذي يتولى الإشراف على الأموال والأراضي الخاصة بالخليفة، وربما كان لولي العهد كاتبه الخاص به.

وكذلك كان في الأمصار دواوين محلية على غرار تلك التي في العاصمة.

أما الدواوين الرئيسية في الدولة الأموية فكانت ما يلي:

- ديوان الرسائل: ديوان الرسائل يشبه رئاسة الورزاء في أيامنا، فرئيس ديوان الرسائل، ويسمى الكاتب، ينشئ الرسائل التي يبعث بها الخليفة إلى الولاة والعمال والملوك الآخرين، ويتلقى الرسائل التي ترد إلى الخليفة، وقد كان الكاتب في أول أمره موظفا بسيطا لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل من الخليفة، حتى أن بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز كان يكتب رسائله بيده، ولكن لما تشعبت أمور الدولة أخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئا فشيئا " فقد كان قبيصة بن ذؤيب يكتب لعبد الملك، وبلغ من لطافة محله منه أنه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك، وكان ذلك له عادة ". وقد تساهل سليمان بن عبد الملك

1 - الصولي: أدب الكاتب، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ، ص 143.

وأمر كاتبه أن يوقع عنه في رسالة وردت من مسلمة بفتح بعض بلاد الروم، ثم أصبح الكاتب مأمونا في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يوقع فقط، ولذلك كثيرا ما كان الكتاب يتلاعبون بالأمور، فقد " حكي أن هشاما أقطع قبل أن يلي الخلافة (ربما في أيام يزيد بن عبد الملك) أرضا يقال لها دورين، فأرسل في قبضها فإذا هي خراب، فقال لذويد – كاتب كان بالشام – ويحك، كيف الحيلة؟ فقال ذويد ما تجعل لي؟ فقال هشام أربعمائة دينار، فكتب ذويد: دورين وقراها ، ثم أمضاها في الدواوين، فأخذ هشام شيئا كثيرا... ولقد حصل الكتاب أنفسهم من مناصبهم أموالا جليلة، وبلغت الجرأة بالكتاب أن قطن مولى يزيد بن الوليد، وكان يتولى ديوان الخاتم والحجابة، كتب على لسان الخليفة يزيد بن الوليد كتابا بولاية العهد لإبراهيم بن الوليد وقرأه على الناس فبايعوا لإبراهيم على رغم إرادة الخليفة المحتضر.

وقبل أن ينقضي العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات قواعد وأصول (في أيام عبد الحميد الكاتب، كاتب مروان الثاني)، وأصبح الكاتب كأنه وزير له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة في تسييرها.

وقد جعل سليمان للكتابة هيبة فأمر أن يكتب في الطوامير- القراطيس الكبيرة (الأوراق الرسمية) – بخط حسن كبير منمق، فلما جاء عمر بن عبد العزيز رأى أن ذلك إسرافا فأمر بالاقتصاد بالقراطيس، وبأن يجعل الخط ناعما رقيقا.

ولقد حرص الخلفاء كلهم على ألا يتناول الكتاب الهدايا لئلا يحملهم ذلك على الخيانة في أموال الدولة وأمورها، ومع كل هذا الحرص فقد وقع في أعمال الدولة كثير من المحذور، وكذلك المجمع عند الخلفاء على عزل الكاتب إذا قبل الهدية.

وكان هذا الديوان يكتب منذ إيجاده باللغة العربية.

- ديوان الجند: كان الجهاد ركنا من أركان الدعوة الإسلامية، وكان الناس يتطوعون للذهاب إلى الفتوح تطوعا حرا بلا قيود لأسمائهم ولا أعطياتهم ولا للغنائم التي يأخذونها، وظل الأمر كذلك حتى أوجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ديوان الجند، وهو في الحقيقة سجل للجيش، أما الذي دعا عمر إلى إيجاد هذا الديوان فهو " أن الهرمزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان قال له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم؟ فإن من تخلف أخل بمكانه، وإنما يضبط ذلك

الكتاب "، فأوجد همر ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدئا من قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم وما بعدها الأقرب فالأقل قربا، وذلك في المحرم من سنة عشرين.

- ديوان الناس وأعطياتهم: هذا الديوان يشبه ديوان الجند، وقد يستنتج من بعض الأقوال أنهما واحد، وهذا الديوان من وضع عمر بن الخطار رضي الله عنه أيضا، ويقال أن أبا هريرة أتى من البحرين بمال فاستكثروه وتعبوا في قسمته، فسَمَوا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد رضي الله عنه بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر رضي الله عنه ذلك الرأي.

- ديوان الخراج: الخراج هو الضريبة التي تؤخذ على الأرض، وقد اختلف العلماء في تحديد الخراج، ولكن يبدو أنه لم يكن فقط للخراج وإنما كان لوجوه الاموال كلها، أي أنه كان ديوانا لأنواع الضرائب التي كانت الدولة تجبيها، ولما دخلت بلاد الشرق الأدنى في الدولة الإسلامية كان هذا الديوان موجودا ويكتب بلغة البلاد المفتوحة، وبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية، وديوان مصر بالقبطية، وقد كان الذين يكتبون في هذه الدواوين من الذين يعرفون الفارسية أو الرومية أو القبطية، ومن غير المسلمين أيضا: كان سرجون بن منصور الرمي النصراني يكتب على ديوان الخراج منذ أيام معاوية إلى أيام عبد الملك، وكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني، وكان يكتب لمسلم بن زياد والي يزيد على خراسان اسطفانوس، وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان والي مصر إيناس بن خمايا وهو من اهل الرها، وقد كتب على ديوان الخراج رجال من الفرس دخل أكثرهم الإسلام أمثال زادويه والد عبد الله بن المقفع، وسارزاد وزادان فروخ كاتب الحجاج بن يوسف.

وأخيرا أراد عبد الملك تعريب الدولة لأسباب كثيرة:

- أن اللغة العربية لغة الدين هي أشرف اللغات، فلا يجوز أن تظل سجلات الدولة العربية المسلمة تكتب بغير لغتها.

- كانت كتابة الدواوين بغير اللغة العربية حائلا دون مراقبة السجلات.

- كان الذين يديرون الدواوين في الأغلب من غير المسلمين.

- قوة النزعة القومية العربية في الدولة الأموية فلم يكن الأمويون يرضون باستعمال لغة غير عربية في حكومتهم.

- تعلم سكان البلاد المفتوحة اللغة العربية حتى أصبحت لغتهم اليومية المتداولة.

وهكذا خطر لعبد الملك منذ سنة 81هـ / 700م أن ينقل الدواوين إلى اللغة العربية، فأمر سليمان بن سعد بنقل ديوان الشام، فطلب سليمان مقابل ذلك خراج الأردن عاما واحدا (180 ألف دينار)، وقد تم نقل ديوان الشام في عام واحد، وأما في العراق وسائر المشرق فكانت الدواوين بالفهلوية، وكان يكتب على ديوان العراق زادان فروخ بن بيري، وكان له معاون اسمه صالح بن عبد الرحمن وهو فارسي الأصل أيضا، ثم إن زادان فروخ قتل في أثناء فتنة ابن الأشعث، فلما بدا للحجاج نقل الدواوين عهد بذلك لصالح فنقلها سنة 78هـ، أي قبل أن ينقل ديوان الشام بثلاث سنوات.

وبعد نقل الدواوين إلى العربية ظل في نفر من الموظفين من المسيحيين أو الصابئة أو المجوس الذين كانوا قد أتقنوا العربية، ولكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أمر أن يعين مكانهم موظفون مسلمون.

ويتبع ديوان الخراج أنواع العملة، فقد كان المسلمون إلى أيام عبد الملك يستعملون النقود اليوانية أو الفارسية، وهي مختلفة الأوزان والقيم، فاتخذ المسلمون عيارا وسطا وجعلوا الدرهم أربعة عشر قيراطا فضة، ثم إنهم ضربوا الدينار من الذهب، وذلك سنة 74 أو 75هـ / 693م، ولكن هذه الدنانير وضعت موضع التداول عام 76هـ، ويقال أن مصعب بن الزبير ضرب الدراهم والدنانير قبل ذلك في سنة 70هـ بأمر من أخيه عبد الله، وفي سنة 71هـ ضرب الحجاج الدراهم باسمه، ولم يجعل المسلمون في نقوش النقود صورا بل كلمات من كتاب الله تعالى.

والملاحظ أن مصادر بيت المال قد نقصت في بعض النواحي كالزكاة والصدقة وزادت في بعضها كالضرائب، ثم إن الانفاق من بيت المال أصبح تابعا لإرادة الخليفة وإن خالف ذلك أحيانا أومار الشريعة، وكذلك اتخذ الخليفة وعماله رواتب باضة من بيت المال.

مصادر بيت المال:

- الزكاة: وهي مبلغ اثين ونصف بالمئة من مجموع المال إذا مر عليه عام ولم يتعلق به دين (وكذلك تؤخذ الزكاة من الأنعام والزروع والثمار بمقدار محدد إذا بلغت النصاب)، وقد قل ورود الزكاة إلى بيت المال لأن نفرا من الناس لم يمونوا يرون بيعة بني أمية صحيحة، فلم يكونوا يرسلون زكاتهم إلى بيت المال بل كانوا يهبونها بطريقة خاصة، مع أن بعض الفقهاء أجاز تسليمها لبني أمية وولاتهم.

- الصدقة: وهي التبرع الحر بالأموال في وجوه الإحسان، وقد قلت الصدقة للسبب نفسه.

- الغنائم: كان الخمس من الغنائم يذهب إلى بيت المال.

- الجزية: وهي مبالغ تؤخذ من غير المسلمين (من أهل الكتاب: يهود ونصارى ومن أنزل منزلتهم كالمجوس والصابئة)، وهي تؤخذ من الذكور البالغين الأصحاء الذين يتكسبون (ولا تؤخذ من الأطفال والنساء وذوي العاهات والرهبان ولا الطاعنين في السن)، أما مقدار الجزية فكان مبلغا مقطوعا به، وقد جعلت الجزية على ثلاث مراتب: أربعة دنانير في العام على الموسرين، ودينارين على متوسطي الحال، ودينارا واحدا على من دونهم، ويمكن تقسيم الجزية أقساطا أو تأجيلها إلى زمن الغلة، أما إذا أسلم الذمي فإنها تسقط عنها، وكذلك إذا تأخر عن أداها سنة أو أكثرثم أسلم فإنها تسقط كلها عنه.

وبما أن الناس كانوا يدخلون في الإسلام تباعا وباستمرار، فإن عددا من مصادر الأموال الواردة إلى بيت مال المسلمين (كالجزية والخراج) قد قل الوارد منها مع الوقت أو انقطع، عندئذ عمد الأمويون إلى زيادة الجزية على الباقين على غير الإسلام فجعلوها خمسة دنانير، ثم بدلوا في الجزية والخراج وسموا ما استحدثوا عشرا زادوا في مبالغهما ثم ضربوها أيضا على المسلمين، حتى ثار المسلمون في مصر والعراق خاصة واحتجوا لثورتهم بأن الولاة يأخذون منهم الجزية.

وهكذا نرى جباية الأموال في أيام الأمويين – حاشا عمر بن عبد العزيز- تكتسب طابعا سياسيا وتخسر صفتها الدينية، وكذلك وجوه النفقات عند الأمويين لم تكن مقيدة بما كانت مقيدة

به أيام النبوة والخلافة الراشدة، بل أصبح بيت المال – بجميع ما يرد فيه في يد الخليفة ينفقه في الوجوه التي يراها هو.

- العشر: يؤخذ من أصحاب الأرض الذين أسلموا عند الفتح وتبقى الأرض لهم، وبعض الفقهاء كانوا يرون أن الأرض يكون عليها إما خراج وإما عشر، ويؤخذ العشر من المسلمين، أما الخراج فيؤخذ من الذميين، فإذا أسلم رجل ذمي تخرج أرضه من الخراج إلى العشر، فالخراج ضريبة والعشر صدقة، وإذا استأجر ذمي أرضا من المسلم فإن المسلم لا يدفع عشرها كون الناتج ليس له، ولا يدفع الذي الخراج لأن الأرض ليس له ويكتفى منه بالجزية.

- الخرْج: إذا فتحت بلاد ما صلحا واتفق العرب مع أهل البلاد (الذين لم يسلموا) على مبلغ معين يدفع في كل عام، فإن الأرض تبقى لأصحابها ويكون لبي المال المبلغ المتفق عليه بين الفريقين.

- الفيء: وفي حكمه خلاف بين الأئمة، ولكن الأرض التي تفتح عنوة تكون أرض فيء، بمعنى أنها تكون للمسلمين وتخرج من عهدة أصحابها، وأن نتاجها لبيت المال.

- الخراج: ويسمى الطسق أيضا، وهو يشبه الفيء لكن الأرض تبقى ملكا لأصحابها ويدفعون الخراج بحسب مساحتها، فيدفعون درهما عن كل جريب (مقدار من الأرض قدره 546 ذراعا طولا وعرضا، والذراع قدره 64 سنتيمترا) نقدا وقفيزا (يعادل نحو 16 كيلوغراما) من نتاجها، أما إذا أصاب الغلة آفة فإن الخراج يسقط عن صاحبها، فالخراج يختلف عن الخرج لأن الخراج نسبة ثابتة معلومة بينما الخرج لا علاقة له بقياس الأرض ولا بنتاجها.

القضاء:

لم يكن للمسلمين قوانين موضوعة، بل كان لهم شريعة مجملة في القرآن ثم فصلت في الحديث، وعلى ذلك لم يكن للقاضي أول الأمر إلا النظر في القضايا والدعاوى وتطبيق أموامر الدين ونواهيه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يباشر القضاء بنفسه في المدينة، فلما انتشر الإسلام في شبه جزيرة العرب ثم وصل اليمن، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم -نفسه يستقضي الجلة من الصحابة، وكذلك فعل أبو بكر رضي الله عنه، حتى جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجعل القضاء منصبا مستقلا بنفسه عن الخلافة. وكان عمل القاضي أول الأمر

في أول الأمر لا يتجاوز الفصل بين الخصوم، ثم أضيفت له مع الأيام أمورا تشبه ما يعرف اليوم من أعمال القضاة.

غير أن الخلفاء قد ينظرون في المظالم، فقد يتعرض بعض الناس (مسلما كان أو غير مسلم) لظلم لا يستطيع القاضي أن يدفعه، أو يشتط الوالي في عقاب رجل أو مضايقته، أو لا يرضى مستقض بحكم القاضي، ويسمي ذلك العرب ظلامة أو مظلمة، فيرفع المظلوم أمره إلى الخليفة. وكان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية يجلسون في المسجد إما كل يوم أو أياما محددة من الأسبوع للنظر في أمر المظالم والفصل فيها.

2/ العلوم الشرعية[1]:

عرف العهد الأموي نشاطا كبيرا لعلماء الشريعة، وظهرت فيهم طبقة تعرف بطبقة التابعين، وهم الذين عاصروا الصحابة رضوان الله عليهم، وقد تلقى جلة منهم العلم على الصحابة، ثم تأتي بعدهم طبقة تابعي التابعين الذين تعلموا بدورهم على من كان قبلهم.

ولأن الصحابة تفرقوا في البلاد الإسلامية بعد توسع الفتوحات، خاصة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يمنعهم من الخروج من المدينة المنورة، إلا من يبعثه هو واليا أو قاضيا أو معلما ومفتيا، وهكذا استوطن كثير منهم حواضر جديدة وتتلمذ عليهم عدد كبير من طلاب العلم، فأخذو عنهم طريقتهم في الفقه والاجتهاد، ودونوا حديثهم، وأخذوا عنهم تفسير القرآن الكريم وقراءاته، وتكونت مراكز تختلف طرائقها بحسب طرائق الصحابة في اجتهادهم، وفي سعة حفظهم للحديث والسنة، ومدى علمهم بالقرآن والتفسير، ثم إنهم بدأوا بتدوين علومهم السابقة الذكر في مصنفات وكتب، واللافت أن ذلك لم يكن مقصورا على الرجال، إذ نبغت تابعيات جليلات في العلوم الشرعية من فقه وحديث وتفسير وغيرها.

1 - د.عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ص 157 وما بعدها
د. أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص 163 وما بعدها
د. إلياس دردور: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 512 وما بعدها

تدوين العلوم الشرعية

توجد نقول كثيرة تقول أن ابن شهاب الزهري أول من دون العلم وكتبه، وكان التابعي الجليل مكحول (ت 113هـ) قد ألف كتابا في مناسك الحج، وله كتاب المسائل في الفقه، كما أورد ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست، والظاهر أن التدوين في الفقه في هذا العصر لم يكن دقيق الترتيب واضح المنهج وتقسيم الكتاب وتبويبه، وإنما كان فيما يبدو عبارة عن تدوين لمسائل غير مبوبة على أبواب العلم، وكانت مختلطة بأحكام الفقه الأكبر وقضايا الأصول، غير أن ابن القيم يذكر أن محمد بن نوح وهو من أعلام المفتين بالمدينة جمع فتاويه في ثلاثة أسفار ضخمة على أبواب الفقه، ويرى الشيعة أن أهل البيت كانوا أسبق الناس في تدوين الفقه ومسائله، وينسبون إلى زيد بن علي بن الحسين (ت 121هـ) كتاب المجموع في الفقه، لكن يرد قول ابن القيم والشيعة السابق جماعة ممن أرخوا للتشريع، ونفوا أن تظهر كتب مرتبة فيه بحسب الأبواب باعتبار أن بدايات كل علم تكون غير مستقرة وتتخلها العفوية وعدم الاهتمام بالتقسيم والترتيب.

أما بخصوص الحديث فإن أول من اهتم بتدوينه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (ت 101هـ)، فقد كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم (ت 120هـ) يأمره أن يدون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ..." وقد كتب ابن حزم بعض ذلك لكنه ضاع منه، وكذلك فعل ابن شهاب الزهري بأمر من عمر ابن عبد العزيز، لكنهم اختلفوا في أي منهما أول من دون الحديث.

واختص آخرون بنقل التفاسير التي سمعوها من الصحابة، ومن أشهر هؤلاء مجاهد تلميذ ابن عباس، وعكرمة مولى ابن عباس، وقتادة بن دعامة، ومحمد بن كعب القرضي...، ويعد هؤلاء من طبقة التابعين، ثم جمع أقوالهم من جاء بعدهم من تابعي التابعين ومن أشهر هؤلاء: شعبة بن الحجاج (ت 160هـ)، وكيع بن الجراح (ت 197هـ)، سفيان بن عيينة (ت 198هـ)، وهؤلاء لهم مؤلفات في هذا العلم. لكن سجلت عليهم انتقادات عديدة منها:

- أنهم لم يشهدوا نزول الوحي ولم يشافهوا النبي صلى الله عليه وسلم فيجوز عليهم الخطأ في تاريخ نزول أو سببه .

- وأنهم لم يتحروا الصحة في الإسناد، فنقلوا الصحيح والضعيف، بل وحتى المكذوب.

- وأن بعض الإسرائيليات قد تسربت إليهم على ما فيها من خرافات ومبالغات، وعلى ما فيها منطعن للأنبياء والرسل.

ويجدر القول أن هؤلاء التزموا التفسير بالمأثور، وتحرجوا من القول في القرآن بالرأي والاجتهاد إلا نادرا، لذلك لم يظهر في زمنهم من التفسيرسوى هذا النوع، ثم ظهر بعد ذلك: التفسير بالرأي والتفسير الإشاري، وقد وضع العلماء ضوابط لكل نوع منهما.

مراكز العلوم الشرعية

قلنا أن الصحابة تفرقوا في حواضر المدن الإسلامية الكبرى، لذلك كانت تعد كل واحدة منها مركزا ومنارة للعلم، تميزت بخصائص مميزة لها واشتهرت بأعلامها وعلمائها، وأهم هذه المراكز:

- المدينة المنورة: بقي فيها جل الصحابة، ومن هؤلاء: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع، وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم كعائشة وحفصة وميمونة وأم سلمة رضي الله عن الجميع، وعليهم درس التابعون وأخذوا العلم، وقد اشتهر في الفقه فقهاء المدينة السبعة، وقد جمعهم أحد في قوله:

ألا كل من لا يقتدي بأئمـــة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمـــان أبو بكر خارجـــة

ويقصد بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن الزبير بن العوام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسعيد بن المسيب بن حزن، وسليمان بن يسار، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وخارجة بن زيد.

وفي التفسير اشتهر عدد كبير منهم: زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب القرضي.

- مكة المكرمة: وأخذوا علمهم من الصحابة من أمثال عتاب بن أسيد وعبد الله بن السائب المخزومي وغيرهم، فنبغ فيها عطاء بن أبي رباح، وقد كان يقول الخليفة الأموي عبد الملك

بن مروان: "لا يفتي أحد في مكة غير عطاء بن أبي رباح"، وكذلك التابعي الجليل مجاهد بن جبروعكرمة مولى ابن عباس، وهؤلاء أيضا أخذوا تفسير القرآن الكريم من عبد الله بن عباس.

- العراق: نزل فيها من الصحابة سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وسهل بن حنيف وغيرهم، وأخذ عن هؤلاء: العالم العابد الزاهد حسن البصري، ومحمد بن سيرين ومسلم بن يسار وأبو قلابة ومسروق بن الأجدع وقتادة بن دعامة ومرة الهمذاني الكوفي.

والملاحظ أن أكثر هؤلاء برع في مجالات شتى من العلوم الشريعة كالفقه والحديث والتفسير، بل وحتى في علوم اللغة والأدب، وإن كان بعضهم اشتهر في بعض هذه العلوم دون غيرها. ويلاحظ أيضا أنه قد تمايز في هذا العهد مدرستان كبيرتان، وهما: مدرسة الأثر في الحجاز(مكة والمدينة)، ومدرسة الرأي في العراق (البصرة والكوفة)، وكان هذا لأسباب عديدة منها:

- قلة الصحابة في العراق مقارنة بما كان في الحجاز.

- نتج عن السبب الأول شح الأحاديث النبوية بالعراق، وشيوعها بالحجاز.

- ظهور أهل البدع وانتشارهم في العراق.

- قرب العراق من حضارة الفرس واحتكاكم بها، وبعد الحجاز عنها.

تابعيات عالمات :

لم يكن العلم في هذا العصر حكرا على الرجال وحدهم ، وإنما كان للنساء حظ وافر منه ، فقد تصدرت المرأة للتحديث و التدريس والافتاء (فكن قدوات صالحات لمن بعدهن)، عرف منهن الكثير، وأسماؤهن مدونة في كتب الطبقات والسير، ونحن نذكر منهن اختصارا:

- عمرة بنت عبد الرحمن: الفقيهة المحدثة الأنصارية، ثقة حجة، كانت من أعلم الناس بحديث عائشة رضي الله عنها وقد كانت مولاة لها، وهي ممن أمر عمر بن العزيز عامله أبو بكر بن حزم بتدوين حديثها.

- حفصة بنت سيرين، أم هذيل: أخت محمد بن سيرين، بصرية تابعية، حفظت القرآن الكريم وعمرها اثنا عشرة سنة، وكانت فقيهة عالمة، توفيت سنة 100هـ، كان يقول ابن أبي داوود: سيدتا التابعيات حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن.

- معاذة بنت عبد الرحمن، أم الصهباء: العدوية البصرية، من ربات العلم والفقه في الدين، ومن أهل العبادة والزهد، توفيت سنة 110هـ.

- عائشة بنت طلحة التميمية، أم عمران: أمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، مدنية تابعية.

3/ اللغة والأدب[1]:

إن الاهتمام بالجوانب الأدبية كالخطابة والشعر كان منذ العصر الجاهلي، فقد كانت تقام لها أسواق معروفة يتبارى فيها الخطباء والشعراء، وكان الشاعر يعتبر فارس القبيلة والمنافح عنها، لذلك نجدهم – إذا نبغ فيهم شاعر – أحتفوا به وأكرموه ومجدوه وقدموه على سائره من أفراد القبيلة،ثم استمر ذلك في صدر الإسلام والعصر الأموي، إلا أنه ظهرت أغراض أدبية لم تكن معهودة في العصر الجاهلي، وظهرت فنون أدبية جديدة لم تكن معهودة منها فن الكتابة.

أما ما يخص اللغة، فإن اتساع الفتوح ودخول من لاعلم له بالعربية أدى إلى مظاهر وظواهر أخلت بها، ومست حتى ألفاظ القرآن الكريم، فظهر اللحن (وهو الخطأ في حركات الكلمات من فتح وكسر وضم وسكون)، والتصحيف (وهو التحريف في نطق حروف الكلمة)، هذا ما حدا بعلماء اللغة إلى استنباط قواعد لها ووضع علامات على كلمات القرآن تمنع الخطأ في تلاوته، ثم قاموا بتدوينها وتعليمها للناس.

ومن مظاهر ذلك في دولة بني أمية:

- إعجام القرآن وتحريكه: كانت كلمات اللغة حين تكتب لا تنقط ولا توضع عليها حركات التشكيل، لذلك وقع ممن أسلموا حديثا ولا علم لهم بالعربية الخطأ في نطقها، خاصة الكلمات التي لها نفس الهيئة والتركيب، أدى ذلك إلى تغيير في ألفاظ ومعاني القرآن، ويقال أن أول من

1 - د.عمر فروخ : العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ص 135 وما بعدها
محمد أبو زهرة : الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب..

نقط المصحف هو أبو الأسود الدؤلي قاضي البصرة بأمر من واليها زياد بن أبيه، ويقول البعض أن من قام بهذه المهمة الجليلة نصر بن عاصم الليثي و يحيى بن يعمر، وللجمع بين الروايتين قيل: إن ابا الأسود قام بجعل الشكل على هيئة نقاط فوق أو تحت أو بين يدي الحرف، ثم قام الأخيران (نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر) بتغيير تلك النقاط إلى الحركات المعهودة لدينا الآن، والذي دعاهما لذلك هو أن إعجام المصحف كان بالنقط، فغيروا شكل الحركات حتى لا تختلط بنقط الإعجام.

- الخطابة: كانت الخطابة من مستلزمات الإدارة، يضطر إليها الخليفة والوالي والعامل والقاضي، وقد برع فيها عدد منهم كالحجاج بن يوسف وزياد بن أبيه. وكانت الدواعي إلى تطورها أسبابا كثيرة منها:

- الفتن: فقد انقسم المسلمون إلى فرق عدة، من أهل سنة وشيعة وخوارج وغيرها، وكل يدعو إلى فكرته وتأييد دعوته.

- السياسة: كان الخلفاء (وأتباعهم من العمال والواة والقضاة)، ومن أجل بسط نفوذ سلطتهم وإحكام زمام دولتهم، يرفعون أصواتهم بالترغيب والترهيب والإنذار لمن يخرج عن جادتهم، كخطبة الحجاج المشهورة حين ولي العراق.

- الوفادة: كثرة الوفادة على الخلفاء والولاة لرفع شكاة أو للإعلان عن تأييد ونصرة، وهي مقام يتخير فيه الكلام و تستعذب الألفاظ وتستجزل المعاني، كما قال ابن عبد ربه.

- الوعظ الديني: اتجه بعض المسلمين إلى التعمق في مسائل الدين الفقهية والكلامية والتبحر فيها لدعوة الناس واستمالة قلوبهم لما يرونه حقا، وأيضا ميل بعض الناس عن الطريق القويم وركونهم إلى الدنيا ... كل ذلك يحتاج إلى تنميق الكلام وتدعيمه بالحجج، وممن برع فيه: الحسن البصري (وقد قالت عائشة رضي الله عنها حين نقل لها بعضا من قوله: من هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء؟) وكذلك مالك بن دينار و واصل بن عطاء ....

- مجالس المباراة في الخطابة: كانت تعقد مجالس للمباراة في الخطابة والسبق فيها، ومن ذلك ما عقده عمر بن عبد العزيز والي العراق من مجلس تبارى فيه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء.

- الشعر: استمر الشعر العربي في تأنقه في العصر الأموي، وقد ساعده على النمو ظروف الحياة ومنجزات الدولة وتباين المواقف السياسية، وزيادة الرفاهية وكثرة الأموال، فظهرت أنواع جديدة لم تكن معهودة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، من ذلك:

الشعر السياسي: والذي يعد من أبرز ملامح تطور الشعر في هذا العصر، وقد قام بعض الشعراء بالانضمام إلى بلاط الخلفاء فمدحوهم وذموا مخالفيهم، ومن هؤلاء كعب بن جعيل والأخطل وعدي بن الرقاع وغيرهم، وبالمقابل اتخذ بعض الشعراء منحى مقابلا فهجوا الخلفاء الأمويين وقدحوا فيهم.

وشعر الغزل الصريح: وكان سبب ظهوره أمران أساسيان: الرفاهية وتيسر أمور الحياة، وضعف الوازع الديني وقلة الفهم فيه. ويمكن اعتبار عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد رائدي هذا النوع.

- الكتابة: تطورت الكتابة من الخطابة، لأن الكتابة أصبحت من مستلزمات الإدارة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وأصبح من المتعذر على الخليفة أو الوالي أن يجمع الناس فيخطبهم في أوامر الدولة، وهكذا كانت الرسالة الأولى في الحقيقة خطبة مدونة، غير أن الكتابة اقتضت تطويلا وتنميقا وتحميدات في المطالع والخواتم، ولما ترقت الكتابة أصبح لها ديوان كبير فيه موظفون متعددون، وأصبح للكتابة نفسها قواعد معينة وطرائق محددة.

3/ العمارة والبناء[1]:

انتقل المجتمع الإسلامي في العصر الإسلامي من طور البساطة والزهد ومحاولة الإلتزام بالمثل الإسلامية الرفيعة وإيثار الآخرة والتخفف من متاع الدنيا، إلى طور جديد فيه شيء من الترف وقدر من التنعم، وفيه أيضا ترخص من البعض في التلذذ بالدنيا ومتعها مادام ذلك لا يتنافى مع ما أباحه الدين وأحلته الشريعه (إلا في حالات خاصة وأشخاص معدودين)، وقد تركت هذه النقلة المدنية أثرها على مناحي الحياة المختلفة في العصر الأموي، فإن اهتمام الأمويين بالإسلام وإعزازهم له، لا يأخذ عندهم شكل الفتح والغزو ونشر الدين واللغة وحسب، بل يشهد أيضا اهتماما بتشييد المساجد في البلاد المفتوحة وتعمير ما أنشئ منها من قبل،

1 - حمدي شاهين : م س ، ص 442 وما بعدها

وتزيينها وزخرفتها على نحو غير مسبوق ظل على مر الزمن بعد ذهاب بني أمية وكان مثار إعجاب وفخر، وحرص الأمويون على قضاء مصالح الرعية ورعايتهم لهم يتبدى في بناء مدن جديدة، وتوسيع المدن القديمة، ليتناسب ذلك مع اتساع رقعة الدولة، وزيادة أعداد سكانها. لقد تم في هذا العهد حفر الآبار وشق الأنهار وإقامة المتنزهات التي تضفي على سكانها لمسة من الراحة والتيسير وإشاعة الجمال.

ثم إن الضرورة العسكرية تحتم على القائمين بأمور الدولة تحصين دولتهم، وذلك بإقامة الحصون والقلاع، وتأسيس مدن في البلاد المفتوحة لتكون مستقرا للمجاهدين الفاتحين وحماية لهم، ولتكون مركزا للعلماء لنشر وتعليم أحكام الدين الأصولية والفقهية، وتربية الداخلين فيه على أخلاق الإسلام السامية، وكذلك لتثبيت الفاتحين وحثهم على التمسك به وعدم الافتنان بالدنيا وزخرفها، ولها دور آخر أيضا: وهو تحقيق الاندماج الاجتماعي بين الفاتحين أنفسهم وبينهم وبين أهل البلاد الأصليين.

ثم إن الخلفاء والأمراء لا ينسون راحة أنفسهم وذويهم، فنجدهم يبنون القصور الفخمة في الحواضر والبوادي، مع ما تتطلبه من وسائل الراحة والتنعم وأسباب الرخاء والاستجمام، وهم إلى ذلك يهتمون بالمنظر الجمالي السار للعين والقلب فيحيطونها بالبساتين والحدائق، ويشقون خلالها مجاري الماء، ويحضرون لها أنواع الطير والحيوان، إننا نرى أن هذا أمر لم يكن خاصا بمن ذكرنا وحسب، فقد امتد ذلك إلى كبار التجار والموسرين والإغنياء من أبناء الشعب، فهم أيضا كانوا يتخذون لأنفسهم المباني الفارهة والجميلة.

عمارة المساجد:

شهد العصر الأموي بناء العديد من المساجد في البلاد المفتوحة لتكون منارات لنشر الدين وتعليم القرآن واللغة والانصهار مع سكان البلاد المفتوحة، كما شهد تطويرا لكثير من المساجد القديمة، وسنقتصر هنا على نماذج منها وحسب:

- مسجد قبة الصخرة: بني في عهد عبد الملك بن مروان وبأمر منه سنة 691م، ولم يبخل عليه بشيء من المال، فكان آية من آيات البناء والعمران، وقد قدم ابن كثير وصفا له فقال: " ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن

حيوة ويزيد بن سلام مولاه..وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه الأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا المال إفراغا ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، وبنو القبة فجاءت من أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران، يعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئا كثيرا، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شم من مسافة بعيدة ، وقد عملا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة [يقصد المتخيلة] شيئا كثيرا مما في الآخرة، فصوروا فيه الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووادي جهنم وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا...وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظرا، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة...فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث".

- المسجد الحرام والمسجد النبوي: بعث الوليد بن عبد الملك إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري بثلاثين ألف دينار، فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب، فكان ذلك أول مما ذهّب به المسجد الحرام.

وكذلك أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بهدم المسجد النبوي وإعادة بنائه، فتجرد عمر لذلك وقام معه علماء المدينة المشهورين من أمثال القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بإعادة بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه ملك الروم مئة ألف مثقال من الذهب ومئة عامل وبعث إليه أربعين حملا من الفسيفساء.

- المسجد الأموي: بدأ ببنائه الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ وقال: "إني أريد أن أبني مسجدا لم يبن أحد مثله قبله، ولن يبني أحد مثله بعده"، وقد توفي قبل تمامه فأكمله أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك. وهذه مقاطع في وصفه مما قاله ابن كثير: "وذكروا أن أرضه كانت مفضضة

كلها، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض، وقد صور بها سائر البلدان المشهورة: الكعبة فوق المحراب وسائر الأقاليم يمنة ويسرة، وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة ، وسقفه مقرنص بالذهب، والسلاسل المعلقة فيه جميعها من ذهب وفضة...وكان محراب الصحابة برنية من بلور، ويقال: بل كانت حجرا من جوهر...وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق، وإنما كان عليها الستور مرخاة...".

بناء المدن وعمارة البلدان

- مصر: تولى أمرها عبد العزيز بن مروان واحدا وعشرين سنة (64-85هـ) وقد أنجز فيها أعمالا واضحة، منها أنه قام ببناء مقياس للنيل، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمرة القصوى بطرف الفسطاط، كما أنه بنى مدينة حلوان واتخذها عاصمة لولايته سنة 73هـ، ونقل إليها بيت المال، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون على قناطر مشيدة على أعمدة، وغرس فيها الأشجار والنخيل، وشيد فيها البنايات الفخمة.

- دمشق: إضافة إلى بناء المسجد الأموي، فقد قاموا بإنشاء مجاري للمياه، حتى أصبح لكل دار فيها نافورة خاصة بها، وأوصلوا إليها الماء الصالح للشرب على قناطر مشيدة على أعمدة.

- العراق: لما ولي البصرة زياد بن أبي زياد أعاد بناء المسجد الجامع و دار الإمارة، وقام بشق نهر فيها سمي نهر معقل (نسبة للصحابي معقل بن يسار رضي الله عنه الذي افتتحه بطلب من زياد)، ثم توالها ابن زياد فبنى قصر البيضاء، وابتنى مدينة صغيرة سماها مدينة الرزق، وكذلك قام أغنياؤها ببناء قصور لهم، أشهرها قصر أنس بن مالك رضي الله عنه والقصر الأحمر الذي بناه عمرو بن عتبة بن أبي سفيان وقصر السيرين وقد شيده عبد الرحمن بن زياد.

ولما ولي الحجاج العراق بنى بها مدينة واسط واتخذها مقرا له، وقد حفر أنهارا عديدة كنهر الصين والنيل والزابي، وأحيا ما حولها من أراض.

ولما تولاها خالد القسري حفر فيها أنهارا عديدة، أشهرها نهر خالد والمبارك والجامع وغيرها، وابتنى بنايات عديدة بالكوفة، وأقام أسواق جديدة، وجعل فيها لكل أصحاب حرفة مكانا خاصا بهم، وبنى أخوه أسد بن عبد الله قرية جديدة عرفت باسمه.

ثم لما قدم إليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليا عليها حفر النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر، وقد قيل له :إن نفقته تكلف ثلاث مئة ألف أو أكثر، فقال: لو بلغت خراج العراق لأنفقته عليه.

القصور :

ومن هذه القصور قصر "عمرة" في الأردن الذي وصفه بروكلمان بقوله : " فعلى أحد جدران القصر نجد رسوم أربعة ملوك يفترض أنهم يمثلون الإمبراطوريات التي دانت للإسلام، وقد نقش فوقها بالحروف العربية واليونانية ما يميز كلا منها عن كل في عين الناظر... ويشتمل البناء – الناهض من حجر كلسي يضرب إلى الحمرة – على قاعة رئيسية مسقوفة بثلاثة عقود اسطوانية، وهي تؤدي مقابل المدخل إلى محراب ذي عقد اسطواني منخفض...وإلى جهة الشرق تجاور الغرفة الرئيسية ثلاث غرف صغيرة أولها مسقوفة بعقد اسطواني والثانية بعقد مصلب والثالثة بقبة، وهذه تؤلف قسم الحمامات في القصر، وهي مزودة بمقاعد تمتد على طول الجدران، وبشبكة من أنابيب الماء..."[1].

ومنها قصر "هشام بن عبد الملك" واسمه أيضا قصر "خربة المفجر" الواقع قرب مدينة أريحا الفلسطينية، وقد تهدم في الزلزال الذي ضربها سنة 747م، ولا تزال آثار باقية منه إلى اليوم.

وبالإضافة إليهما هناك قصور أخرى عديدة منها: قصر "المشتى" و"الأخيضر" و"الموقر" و"القسطل" وغيرها.

1 - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية: ج 1، ص 186 وما بعدها

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريـم**

- أحمد الحوفي : الحياة السياسية العربية في الشعر الجاهلي ، القاهرة ، 1962 م .

- أحمد صالح العدلي : محاضرات في تاريخ العرب ، الموصل ، 1981 م .

- إلياس دردور: تاريخ الفقه الإسلامي: دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1431هـ / 2010م.

- جاسم صكبان علي : تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية ، دار الفكر ، عمان ، الأردن ، ط 1 / 2002 م .

- د/ جعفر شهيدي: تاريخ الإسلام التحليلي حتى نهاية العهد الأموي، تر: عائد الزين، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ / 2002م.

- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، 1980 م .

- جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ..

- ابن حبيب : المحير ، حيدر آباد الركن ، 1371 هـ .

- أبو الحسن علي الحسني الندوي : خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، الزيتونة للإعلام والنشر ، باتنة ، الجزائر .

- د/ حمدي شاهين: الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات، دار القاهرة للكتاب، مصر، 2001م

- د/ رحيم كاضم محمد الهاشمي و عواطف محمد العربي شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية (دراسة في تاريخ النظم) ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، و المكتبة الجامعية، غريان ، ليبيا ، ط 2 ، 1429 هـ ، 2008 م .

- د/ أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1433هـ / 2012م.

- السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام .

- صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 2003 م .

- الصولي: أدب الكاتب، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ .

- عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ربيع الأول 1391 هـ ، مايو 1971 م ، ط 1 ، مج 2

- عبد الحميد خطاب : الوضع العقائدي ومجيء الإسلام ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،

- د/ عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 2005 م .

- علي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ، 1960 م .

- د.عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1401هـ / 1981م .

- د/ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى الهربية عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ؟ / 2012 م .

- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية : نبيه أمين فارس و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 5 / 1968 .

- ابن كثير: البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر، د م.

- أ.د/ كمال سيد أبو مصطفى و د/ أسامة أحمد حماد : في تاريخ الدولة العربية الإسلامية (تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية) ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ط ؟ /2009 م .

- كمال اليازجي : معالم الفكر العربي ، بيروت ، 1960 م .

- محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة.

- د/ محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، د م .

- محمد عبد الحي محمد شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1983 م .

- محمد الغزالي : فقه السيرة ، دار الشروق ، القاهرة ، د م .

- د/ محمد كمال شبانة : الدولة العربية الإسلامية ، دار العالم العربي ، مطابع آمون ، القاهرة.

- محمود عبد الله العبيدي : بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي ، بغداد ، 1984 م .

- د/ مصطفى السباعي : السير النبوية (دروس وعبر) ، الزهراء للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 2 / 1993 م .

- د/ نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 3 / 1403 هـ - 1983 م .

- د/ واضح الصمد : الحضارة العربية الإسلامية في عصر صدر الإسلام ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس ، لبنان ، ط ؟ ، 2009 م .